التربية الإسلامية

وأشهر المربين المسلمين

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م

التربية الإسلامية

وأشهر المربين المسلمين

تأليف

دكتور / محمد علي محمد المرصفي

أستاذ أصول التربية المساعد (طنطا)
أستاذ التربية المشارك - كلية التربية للبنات بجدة

دكتورة / آمال حمزة المرزوقي أبو حسين

أستاذ مساعد - قسم التربية (طالبات
كلية التربية) جامعة أم القرى بمكة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ
ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ
ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

صدق الله العظيم

المقدمة :

لاشك أن التربية عموماً ، والتربية الإسلامية على وجه الخصوص تؤدى دوراً كبيراً فى المجتمع الإسلامى ، ذلك أن التربية والمجتمع متلازمان ، تقدماً وتدهوراً ، تطوراً وتخلفاً ، فكما يكون المجتمع تكون التربية ، وكما تكون التربية يكون المجتمع .

ولا جدال فى أن التربية الإسلامية والتى مصدرها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ جديرة بأن تحتل مكان الصدارة وسط هذا الكم الهائل من نوعيات التربية المختلفة التى آتت كلها من صنع البشر .

هذا وقد حاولنا فى هذا الكتاب أن نلتزم بإطار المنهج الإسلامى فى التربية ، ودللنا على الكثير من القضايا التربوية بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، كما أثبتنا فى كثير من المواقع فى هذا الكتاب أن التربية الإسلامية ، صالحة لكل زمان ومكان ، وأن صنوف التربية الأخرى الوضعية لا ترقى إلى مستوى التربية الإسلامية .

والكتاب فى جملته محاولة جادة لتقديم الكثير الغزير حول مفاهيم التربية الإسلامية ومصادرها ومؤسساتها وأصولها الاعتقادية والتعبدية والفكرية والنفسية .

هذا ولم يفت المؤلفان أن يتعرضا للحديث عن أشهر المربين المسلمين ومنهم الإمام الغزالى وابن خلدون ، وقد جاء الفكر التربوى لهذين العلمين فكراً تربوياً مستمداً من المنهج الإسلامى .

هذا ولعلنا فى هذا الجهد أن نكون قد وفقنا لتقديم التربية الإسلامية فى قالب أدبى رفيع . وحسبنا الرجاء والثواب من الله رب العالمين وهو وحده نعم المولى ونعم النصير .

هذا والله سبحانه من وراء القصد

دكتور / **محمد على محمد المرصفى**

دكتورة / **آمال حمزة المرزوقى أبو حسين**

تقديــــم :

درج الناس على مدى التاريخ الطويل للحضارة الإنسانية ، أن يستندوا إلى التربية في توجيه حياتهم . غير أن التربية بهذا الشكل كانت تقليدية محضة ، مما أكد من وجهة النظر الحديثة ، ضرورة جعل التربية تأخذ شكلاً آخر ، وجعلها طاقة وقوة دافعة للحضارة الإنسانية ، ومرتبطة بمشكلات الفرد والجماعة ، ومرآة يرى المجتمع فيها نفسه ، ويؤكد فيها ذاته .

والمجتمع الذي ينتظم جزء كبير من أفراده في مراحل التعليم المختلفة . لابد وأن يصبح التعليم قوة حاسمة في تحديد شكل هذا المجتمع . والتربية بهذا تؤدي دورها على مستوى الفرد والجماعة ، وتؤكد ارتباطها بمشكلات المجتمع ومقدراته .

والتربية الحقيقية هي التي تؤدي دورها في بناء المجتمع ، ولن يتحقق ذلك إلا بنوع معين من التربية ، تنطلق فيه طاقات الأفراد وتستثمر فيه قدراتهم ، ويكونون بذلك قادرين بما لديهم من مهارات وقيم وفكر على أن يحولوا كل ما لدى المجتمع من موارد طبيعية إلى طاقات تكون في خدمة الإنسان المعاصر .

ومن هنا فإن الأثر الذي تحدثه التربية في المجتمع هو المقياس الحقيقي لمدى فعالية النظام التعليمي ، داخل المجتمع بصرف النظر عن حجم هذا النظام . والتربية بهذا تهدف بالدرجة الأولى ، إلى تنمية الفرد بشكل كامل عقلياً وبدنياً وروحياً وعاطفياً وجمالياً واجتماعياً وأخلاقياً وثقافياً وسياسياً .. إلخ .

وإذا صح كل ما تقدم فلا شك أن الجانب التطبيقي السلوكي يحتل وسط تلك الأغراض المكان الأول ، وخصوصاً أن السلوك هو المحك الأساسي لقياس مدى استيعاب الفكر النظري ، وقدرة الفرد على التخلق بما ثبت فيه من ركائز أصبحت سمة من سمات حياته وصفة مميزة في تعامله مع أقرانه من بني البشر .

وإذا كانت العلاقات بين الأفراد هي التي تكشف عن مضمون مدى استيعاب الإدراك الواعي لأغراض التربية ، بما تشتمل عليه من تطبيق عملي لتلك الأغراض ، فما هي نظرة الإسلام إلى تلك الجوانب السلوكية وأهميتها في تربية الإنسان المسلم ؟ وقبل ذلك ، ما هو الإطار النظري العام للتربية الإسلامية ..؟

هذا ما سوف نناقشه في هذا البحث آخذين في الاعتبار أننا سوف نسوق الحديث عن واقع وحال التربية الإسلامية بشكل إجمالي ، كما سنعطي نموذجاً وحيداً ، من أساليب التربية في الإسلام ، تاركين التفصيل الموسع ، والشرح المفصل لمناسبة أخرى . وعسانا وقتها نكون قد وفقنا إلى كشف النقاب عن أسرار جديدة ، حول ما تعانيه التربية الإسلامية سواء على أيدي كتاب في التربية مسلمين أو على أيدي غيرهم من التربويين ممن لا يعتنقون الإسلام . وقبل كل شيء وبعده ، فإن النية خالصة لله رب العالمين ، أن يكون هذا البحث مفتتحاً وليس خاتمة ، وبدءاً وليس نهاية (فالمجال على حد علمي خلو من الكتابة المتخصصة التي تعتمد على أصول من كتاب الله وسنة رسوله . وتراعى في نفس الوقت الحيطة في التفسير للكتاب الكريم ، والتحليل لمواقف الإسلام من القضايا التربوية) .

وعموماً فأول الغيث قطرة ، وعسى الله أن يأتي بالفتح ويهيىء لمجال التربية الإسلامية من يدفع عنها غائلة الدخلاء عليها ، المنبثين داخل أفنائها ، من يحاولون أن يثروا ثراء أدبياً أو مادياً على حسابها ، وأن غداً لناظره قريب ، وعسى ذلك أن يكون قريباً .

مفهوم التربية الإسلامية :

باديء ذي بدء فلا غرابة ونحن على أبواب هذا البحث ، أن نقرر أنه لا يوجد بين جميع النظم التربوية قديمها وحديثها نظام تربوي استطاع أن يولي اهتمامه للإنسان من جميع جوانبه العقلية والروحية والبدنية ، سوى نظام واحد هو التربية الإسلامية .

وإن كان المنطق والتفكير العلمي يحتمان بالضرورة طرح المقدمات وتحليلها من أجل الوصول إلى النتائج فإننا لن نجافي الحقيقة حينما نضع هذه النتيجة المسبقة قبل الخوض في حيز الدليل والبرهان .

ومن غريب الأمر أن يطرأ حتى على ألسنة بعض المثقفين ، لا أقول التشكيك ولكن أقول لبس في الفهم أو خلط في التفكير ، فتراهم يقولون : لماذا التربية الإسلامية ..؟ أو بشكل آخر : ما هي الإضافة التي سوف تضيفها بحوث صممت أو تصمم في مجال التربية الإسلامية .. ؟

والواقع أن نظرة حول النظم الفلسفية الأخرى سواء القديم منها أو الحديث ترينا أن تلك الأنظمة لم تفلح في وضع إطار عام تربوي فبعضها قد عالج الجانب المادي ، والبعض الآخر قد عالج الجانب الروحي فقط وسوف نسوق في هذا المجال بعض الأدلة على ذلك :

فأفلاطون استخدم الفلسفة كمبرر لحياة الترف في المجتمع كما استخدمها للدفاع عن القيم الأخلاقية والسياسية لطبقته الاجتماعية ، كما وجد أن قيم الطبقة الأرستقراطية الحاكمة متأصلة فيما يسمى بالبناء أو التركيب الخالد للعالم وبذلك خول أفلاطون لنفسه تنحية هذه القيم عن متناول الفحص والنقد والنقاش . من جانب الفرد العادي في المجتمع وقصر البحث في تلك القضايا على الفلاسفة وعلى الذين يتمتعون بوقت الفراغ ، ومن هنا يمكن أن نستنبط تفسير كل فلسفة أفلاطون سواء في نظرية المعرفة في العالم ، في الكون ، في الأخلاق ، في السياسة التربوية .

ونخرج بتلك النتيجة أن الفلسفة عند أفلاطون لم تكن حباً للحكمة كما أنها لم تبرأ من التحيز بل أنها تهدف منذ البداية إلى خدمة وظيفة اجتماعية محددة .

وحينما نصل إلى العصور الوسطى فإننا نلمح أن الفلاسفة المدرسين قاموا بتبرير المعتقدات التي أضفت عليها الكنيسة طابع القداسة وبالتالي فإنهم أكدوا أولوية الإيمان على التفكير وسمو الحقائق التي تدور حول الدين على الحقائق العلمية ، ومن هنا أطلقوا ذلك المصطلح أن « الفلسفة خادمة للدين » .

كما أننا أيضاً نشاهد في العصور المسيحية التالية ، أن جزءاً من الفلسفة كان عبارة عن محاولات لوضع العلم في مكان محدد بحيث لا يغطي على القيم الدينية ، وبالتالي لا يؤثر على وضع نفوذ رجال الدين .

أما في القرن التاسع عشر ، فلقد وصل الاتجاه نحو التبرير إلى درجة كبيرة خصوصاً على يد هيجل الذي برر باسم المثالية العقلية المذاهب التي كادت أن

تهددها بروز الروح العلمية وظهور الاتجاه الجديد نحو الحكومة الشعبية .

وفي أحضان الفلسفة الوجودية نرى أنها فلسفة ذاتية ميتافيزيقية غير علمية وتأبى دائماً من الاتجاه الاجتماعي ، وأكثر من ذلك فالقلق واليأس والفشل كل أولئك مظاهر الوجود في نظرهم . والوجوديون لا يعيرون اهتماماً لمشكلات الحياة العلمية ، لأنها لا قيمة لها ، بالإضافة إلى أنها قد تصرف الإنسان عن التفكير في الموت الذي هو في نظرهم غاية تجذب الوجود كله تجاهها .

ونظرة حول تلك الفلسفات ترينا أن الاتجاه التقليدي للفلسفة يهتم بالبحث عن طبيعة الحقيقة المطلقة النهائية ، والتأمل في طبيعة الأشياء في ذاتها كما أننا نلحظ أن التشكيك في قيمة الفلسفة نابع من الفلاسفة أنفسهم هل يقتصرون فقط على مناقشة المسائل العقلية النظرية أم يزاولون الإسهام في الجوانب العملية للمشكلات .

ومن عجيب الأمر أن نرى بعض الفلسفات مثل الوجودية تحمل بين طياتها مقومات فشلها وعجزها عن الاتساق مع الحياة ، إذ كيف تفصل تلك الفلسفة الإنسان عن متطلبات الطبيعة الإنسانية ، وكيف تتنكر لما يصلح النفس البشرية ويضمن لها الحياة الكريمة ناهيك عن جعل تلك الحياة وسيلة لحياة أخرى أزلية .

نظرة الإسلام إلى العقل:

العقل بما أوتي من قدرة يستطيع أن ينسق المعلومات وينظمها ويضع العلاقة بينها ، كما يبحث عن الأسباب والمسببات حولها . والعقل في كل هذه العملية لا يصل إلا إلى نتائج ربما يرجع عنها مع التقدم العلمي المستمر والعقل بهذا نظراً لاعتماده على الحواس التي كثيراً ما تخدع ، لا يصل إلى حقائق الأشياء ، بل يصل إلى وصفها فقط ، وما كان كذلك كان عاجزاً عن وضع المنهج المتكامل للإنسان .

وإذا وصلنا إلى هذه النقطة ، فإننا نشاهد أن هذا العقل منوط بثلاثة أصناف من البشر : صنف متبلد الفكر ، متحجر الفهم يقف عند حد النهم فهو إنسان شره لا يلقي بالاً إلا للمطعم والمشرب وكفى .

وصنف آخر ربما يحظى بقدر من الذكاء غير أنه يستثمره فيما يجر له نفعاً ، ويجلب عليه عائداً مادياً ، ولا شك أن هذين الصنفين من البشر لا خير فيهم ، ولا

يملكون قدرة على إفادة المجتمع ، فضلاً عن التقنين ووضع الإطار الفكري .

أما الصنف الثالث فهم العلماء ، ومهما تعددت تخصصاتهم ، وتفردت مذاهبهم ، فإننا وبلا أدنى شك نضعهم في المرتبة الأولى ، وكيف لا ؟ وهم الصفوة المختارة وأصحاب العقول المفكرة ونسأل :

هل في مكنة هؤلاء العلماء والفلاسفة ، أن يقننوا للبشرية إطاراً ومنهجاً دينياً يصلح لكل زمان ؟ .

والحقيقة التي تبقى هي أن قضايا الحب والإخاء والمساواة وتحقيق القدر الكافي من الأمن للإنسانية ، ما كانت لتقدر على تقنينه عقول الفلاسفة أو العلماء أو المفكرين ، مهما أوتوا من علم ومهما وصلوا إلى صواب في بعض القضايا العلمية ، ومن هنا فلا يوجد بين نظريات الفلاسفة نظرية واحدة ، صلحت أن تكون دستوراً لمن عاصر هذا الفيلسوف من الجماعة ، فضلاً عما تلاه من عصور ، أو لحقه من أجيال ، وربما بدأ في بعض العصور انبهار بعض المجتمعات وخصوصاً في قطاع الشباب ، ببعض نظريات فلسفية لفيلسوف معين ، وقد تستمر تلك النظرية تؤدي دورها في قيادة المجتمع ، طالما أن هناك من يحاول تلقينها للأفراد ، ولكن قد يحدث أنه بعد فترة زمنية محددة ينكشف أمام المجتمع سلبيات تلك النظرية وعجزها عن تحقيق الأمن والعدل والحب والإخاء والمساواة .

وإذا ثبت بهذا أن العقل البشري قد عجز في المجال الدنيوي ، وفي عالم المحسوسات ، فلا شك أنه يكون أشد عجزاً في مجال الجانب الغيبي ، ولا شك أنه عاجز عن معرفة كنه ذاته ، وعن معرفة حقيقة الروح التي هي قوام حركته كما هو عاجز عن إدراك ما وراء الموت ومصير الإنسان ، وسائر القضايا الغيبية الأخرى من بعث وحساب وجنة ونار .. إلخ .

وعلى هذا فلنا أن نقرر في اطمئنان كامل أن الدين الذي هو الركيزة الأساسية للتربية ليس من تصميم العقل ، وإنما هو من صنع الخالق القادر ، من لدن حكيم عليم ، سميع بصير ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يعلم السر وأخفى ..

ومن هنا فإن الدين يوقف الإنسان على حقائق تعجز عنها القوانين الوضعية التي يخطيء من يعتقد أنها تأتي بسلوك سوى كامل متكامل ، أو أنها ترقى إلى حقيقة

الدين الذي هو من عند الله .

التربية الإسلامية حقيقة :

وعلى هذا الأساس ، ومن هذا المنطلق ، فإنه لمن العبث كل العبث ومن الخطأ كل الخطأ أن نتأرجح بين فلسفات غربية أو شرقية ، لا هي إسلامية ولا هي قرآنية ، أقول : من العبث ، لأننا وقد شاهدنا عجز الإنسان عن التقنين للبشرية بما يسعدها وما يربيها ، وما ينظم حياتها ، أحرى بنا أن ننظر فى تراثنا ، نستمد منه مقومات حياتنا ، ونستعين به على فلسفة أمور مجتمعنا .

ومن هنا فلا نكون قد جانبنا الصواب إذا قررنا أن للإسلام نظرية تسمى التربية الإسلامية ، وإذا كنا اليوم نبدو كما لو كنا نجافي هذه النظرية ، فهذا ليس راجعاً في حد ذاته إلى عيب في النظرية التربوية الإسلامية ـــ وحاشاها أن يصاحبها عيب أو يلازمها خلط ـــ بقدر ما هو راجع إلى عيب فينا نحن المسلمين ، وفي مدى استجابتنا لتلك النظرية ، ومن قدرتنا على التطبيق .

أفبعد هذا يتطرق الشك ـــ عند من يساورهم الشك ـــ نحو تربية مصدرها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، أيتطرق الشك نحو تربية استمدت وحي كل عناصر مقوماتها من السماء ؟

لا شك أن الخالق المبدع ، أقدر على وضع الأسس والمبادىء ، والقوانين التي تضمن للإنسان سعادته .

وعلى هذا فإن الإسلام هو الدين العالمي الوحيد ، الذي انفرد إلى السبق في تصميم إطار نظري وعملي متكامل يصلح للتطبيق كما يستهدِف الإنِسان كله ، روحه وجسده ظاهره وباطنه .

هذا في الوقت الذي نرى فيه أن التربية الوضعية ، قد تهتم بالجانب الحسي ، والذي يقوم على إهمال كل ما يعدو الحس ويفارق المحسوس ويؤمن إيماناً راسخاً بكل ما تراه العين وتحسه النفس . فوضع من التربية وأساليبها ، كل ما ينظم الجوانب الحسية والحياتية من زراعة وصناعة وتعليم وتشييد بصرف النظر عن النظر عن أية جوانب أخرى تكون من متطلبات الطبيعة الإنسانية والجماعات البشرية .

أما الإسلام فإنه يربي الإنسان كإنسان بصرف النظر عن البيئة التي ينتمي إليها ، وبصرف النظر عن الأسرة التي استمد منها مقومات حياته . وبهذا يكون الإسلام قد غض الطرف عن الأحساب والأنساب ، والغنى والفقر ، ووضع مصلحة الإنسان بالدرجة الأولى يربيه ، ويسعى في ذلك في مساواة كاملة وفى عدالة تامة .

ومما يدعم هذه الدلالة ، أننا نلمح في القرن العشرين ، والذي ارتقت فيه الحياة المادية ، ووصلت إلى ذروتها من جراء المفكر المعاصر أن الإنسانية لم تنعم بعد بثمرة هذا الرقي وذلك التقدم ، حيث أن التركيز كان بالدرجة الأولى ينحو للجانب المادي فقط ، مما ترتب عليه اختفاء القيم الأصلية والروابط الأسرية والاجتماعية وانتشار الأمراض النفسية .

كما أننا نلمح أيضا الإحساس بالضياع بين القطاع الكبير من الشباب والفتيات على المستوى الدولي والعالمي ... وكيف لا ؟

وتلك الاتجاهات المادية ، الماركسية منها والوجودية والبراجماتية لا تولي وجهها إلا شطر التعامل مع الإنسان كمادة ، فلا تؤمن تلك المذاهب إلا بها ، فالإنسان في نظر الماركسية (ترس) في آلة كبيرة اسمها المجتمع .

كما لا يخفى ما للوجودية من أثر بغيض فهي التي أطلقت للإنسان العنان باسم الحرية ، وتأكيد الذات ، ليتخبط في القلق وحيدا بلا وازع من ضمير أو خلق أو قوة عليا وتركته ليعتصره الصراع .

وإن ننس لن ننسى البراجماتية ، التي تؤكد في غير ما حياء ولا خجل أن كل ما جر نفعا ماديا عاجلا أو آجلا فهو الحق ، وما عداه فهو الباطل .

ولعل النتيجة القريبة لتلك الاتجاهات ، ربما تنعكس في تحقيق هدف مادى دنيوي يتمثل في امتلاء المعدة بالطعام والشراب ، كما يتمثل في توفير المسكن والملبس وسائر الكماليات .

غير أن الحقيقة تبقى مدوية ، أن هذه الاتجاهات تنتج حتما وبالضرورة نوعا

من التخبط ، ونوعا من القلق والسقوط ، الذي أصبح من أهم سمات هذا العصر ، والذي كان نتيجة حتمية للتعامل مع الإنسان كمادة .

والواقع أن الإنسان مادة وروح ، وبينما الجزء المادي يشده إلى الأرض فإن الجزء الروحي يسمو به إلى السماء .

أفبعد هذا يمكن للعقل البشري أن يضع إطارا دينيا أو منهجيا يمكنه أن يحقق التوازن بين الجانبين ؟

الواقع وكما سبق أن ألمحنا أن العقل ، أثناء تعامله مع الكون يستمد المعلومات من المادة عن طريق الحواس ، السمع أو البصر أو الشم أو اللسان أو غيرها ، ولما كان لتلك المعلومات دلالة خاصة ، فإن نقلها إلى العقل عن طريق تلك الحواس يخضع لمؤثرات كثيرة ، تؤثر على صدق النقل مما يترتب عليه تزويد العقل بمعلومات يشوبها التشويش ، ويسيطر عليها الخلط . وإذا تركنا هذا جانبا لنرى أنظمة أخرى ، اتجهت شطر الجانب الروحي الذي يقوم على العناية بالروح ، وترك كل شيء يتصل بالحس ، حينئذ ندرك ضرورة وأهمية التربية الإسلامية التي وضعت في المقام الأول الإنسان بكيانه كله ، جسمه وروحه وعقله ، واعترفت أن الإنسان مجموعة من هذه العوامل كلها ، وأنه كيان واحد مترابط الأجزاء .

وعلى هذا الأساس فإن التربية الإسلامية حقيقة لا تحتاج إلى دفاع وحق لا يقبل الجدل ، غير أننا أردنا في هذا الجزء أن نطرح بعض الخيوط حول تلك النظرية لتكون بمثابة قاعدة قوية تنطلق من خلالها نحو عرض للتربية الإسلامية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

مصادر التربية الإسلامية:

مما لا شك أن قمة المصادر في مجال التربية الإسلامية تكمن في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . وإذا كان القرآن الكريم هو الدستور السماوي ، وهو الكتاب الجامع الشامل ، وهو بمثابة الإطار النظري في مجال التربية للبشر ، فإن السنة المطهرة جاءت بمثابة الإطار التطبيقي لما احتواه القرآن الكريم . وسنتحدث في إيجاز عن كل من هذين المصدرين :

أولا : القرآن الكريم:

نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ عن طريق الوحي ، وقد كان نزوله منجما (بالتدريج) وفقا للأحداث التاريخية والوقائع ووفقا للمواقف والغزوات ووفقا للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية .

من هنا تكمن عظمة القرآن الكريم في أنه كتاب هداية للبشرية جمعاء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وهو كتاب شامل جامع ، لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهو كتاب مقنن صالح لكل زمان ولكل مكان يجد فيه كل إنسان وتجد فيه كل أمة حاجتها .

وإذا كنا في علم التربية نقول بأن التربية هي الحياة والحياة هي التربية ، وإذا كان القرآن الكريم قد تناول كل ما من شأنه إصلاح البشر جميعا ، حيث تحدث القرآن الكريم عن الأسرة وكيفية تكوينها ، كما تحدث عن المجتمع وكيفية بنائه ، وتحدث عن العلاقات الإنسانية وكيفية إقامتها ، إذا كان ذلك كذلك فإن القرآن الكريم يعتبر من أهم المصادر في مجال التربية الإسلامية ، منه نستمد مقومات التربية ، ومناهجها ، وطرقها ، وأساليبها ، وكيف لا ؟؟ والقرآن الكريم كتاب الله وهو سبحانه يعلم ما يصلح العباد وما يريبهم ، فهو خالقهم ، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى .

من هنا يحتل القرآن الكريم مكان الصدارة في التربية الإسلامية وذلك للأسباب الآتية :

* القرآن الكريم كتاب الله نزل بالوحي على النبي ﷺ .
* شمولية القرآن الكريم وتناوله لجميع شئون حياة الفرد وحياة المجتمع .
* القرآن اشتمل على الكثير من الآيات التي تشيد بالعقل والفكر . قال تعالى : **﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب ﴾** .
* القرآن تضمن تنشئة الفرد المسلم واهتم بالكثير مما يعين على تكوين الإنسان المسلم الصحيح بدنيا وعقليا وخلقيا واجتماعيا وثقافيا . قال تعالى :

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ .

* القرآن الكريم يتناول في كثيرمن سوره الأسلوب القصصي وهذا الأسلوب يعين على التعلم والتفكر والاعتبار بأحوال الأمم السابقة ، قال تعالى : **﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾** .
* القرآن الكريم بين نظام الأسرة في الإسلام وكيفية تكوين الأسرة وتربية الأبناء .
* القرآن الكريم تناول كيفية تكوين العلاقات الدولية ، قال تعالى : **﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾** .
* القرآن الكريم تناول في كثير من آياته الغزوات وفي ذلك نمط ومنهج فيما يرتبط بمقومات البناء العسكري والتربية العسكرية .

ثانيا : السنة النبوية المطهرة :

تعد السنة المصدر الثاني للتربية الإسلامية ، ونعني بها : « كل ماصدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو إقرار أو صفة خِلْقية أو خُلُقية » .

والسنة النبوية جاءت شارحة ومفصلة لكل مجمل ورد في القرآن الكريم . من هنا فهي تمثل الإطار التطبيقي للتربية الإسلامية ، حيث أنها قد طبقت في سلوك النبي ﷺ سواء مع أهله أو في المجتمع من حوله ، سواء في مخاطبته للناس ، أو في دعوته إلى الإسلام في كل جزئية من جزئيات حياته .

ولا غرابة أن تكون السنة هي المصدر الثاني للتربية الإسلامية وذلك للأسباب الآتية :

* أن الله سبحانه وتعالى قد جمع لنبيه ﷺ كل أسباب الهداية ووسائلها ، قال تعالى : **﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ﴾** .
* أن النبي ﷺ قد أعطى جوامع الكلم وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، قال ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .
* قدرة النبي ﷺ على تقريب الأفكار المجردة بصورة محسوسة ملموسة وهي إحدى وسائل التربية الإيضاحية (تمثيل) .
* حياة النبي ﷺ تنطق بالتربية العملية التي تمتزج فيها الرحمة والإيمان بالعمل

والتنفيذ .

وقد تجلت الروعة في كيفية بناء المسجد بيديه وهو أول مؤسسة تربوية في الإسلام ، قال ﷺ : « إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها فله بذلك أجرا » .

* يؤكد النبي ﷺ بمنهجه أن طريق الآخرة هو طريق الدنيا بلا اختلاف ، ولا افتراق .
* اللين والرحمة والشفقة التي كان يتبعها النبي ﷺ وهو يرعى الرعيل الأول من المسلمين وفي هذا خير قدوة للمعلم المسلم .
* التفاؤل المستمر والأمل والرجاء والثقة التي كان يتمتع بها النبي ﷺ ويبين لأصحابه أنه لا استمرار للحياة مع اليأس ... وهكذا يمكن أن يستفيد المسلمون من هذا النهج النبوى .

ويكفينا قول المولى عز وجل : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾ .

مؤسسات التربية الإسلامية :

أولا : الكُتّاب :

لا تكاد العين تلمح مرجعا في التربية الإسلامية قد خلا من الكتابة وبتوسع شديد عن الكتاب ، ليس فقط كناحية تاريخية ، ولكن كمؤسسة تربوية أدت وتؤدى دورا رئيسيا في تعليم النشء فنون القراءة والكتابة ، وأيضا المحافظة على القران الكريم ، دستور الإسلام ، وجوهر الدين . ولا يهمنا هنا أن يكون الكتاب في تعريفه مرادفا للمدرسة الأولية أو الابتدائية ، كما أيضا لا يهمنا إن كان الكتاب يتخذ من المساجد ـــ على ماورد فيها من تحريم ـــ أماكن للكتاتيب أم لا ، وأيضا لا يهمنا أن يأتي على الكتاتيب حين من الدهر تنشط حركتها ، وتزدهر أنشطتها ، كما سيأتي زمان آخر تفتر همتها ، أو قل همة المشتغلين فيها من معلمين ومتعلمين ، كما لا يهمنا أيضا متى كان اليوم الدراسي يبدأ أو متى ينتهي ؟ وإنما يذوب أمام ذلك كله شيء واحد ، أن تلك الكتاتيب أبقت بل حافظت على الإبقاء على القرآن الكريم محفوظا بين دفتي المصحف وبين الصدور ، كما يهمنا تعليم القراءة والكتابة وهما الوسيلتان الأساسيتان

للإبقاء على التراث الفكري الإسلامي عبر القرون القريبة والبعيدة . وتدل أغلب الروايات على أن الكتاب كان في الغالب مستقلا عن المسجد ، كما أن الأطفال كانوا يلتحقون به بين سن الخامسة أو السادسة ، وكان القرآن الكريم هو المنهج الرئيسي الذي يدرس في الكتاب . وإن كان التاريخ يحدثنا أن بعض البلاد كانت تدرس علوم اللغة والفقه بجوار القرآن الكريم مما لعب دورا كبيرا في انطلاقة اللسان العربي ، وقدرته البلاغية في الفصاحة والبيان . وتدل بعض الروايات أن بعض البلاد أخذت بالمنهج المحافظ بحيث تدرس العلوم الأخرى في شكل منفصل عن القرآن الكريم ، ولذلك لم تظهر فيها سمات الفصاحة البلاغية ، وعموما فليس هناك دليل قاطع يؤكد على الفصل بين دراسة القرآن الكريم وعلوم البيان واللغة . وما يهمنا هو أن الكتاب كان يهدف إلى تزويد الأطفال بالقراءة والكتابة وأيضا كان يهدف الكتاب إلى تعلم التمسك بالخلق الكريم .

ومن غريب الأمر أن يكون الكتاب المؤسسة التربوية الوحيدة الذي أقيم في كل وقت وفي كل مكان وتحت أي نظام للحكم ، دون ما تدخل حقيقي أو إشراف رسمي من قبل الحكومات أو الدول الحاكمة ، وهذا مما يؤكد عظمة الكتاب الذي كان ومازال من صنع الأفراد ومن جهدهم الخاص .

وإن كانت قد برزت بعض الكتابات التي تضفي قدرا كبيرا من التقليل من شأن معلمي الكتاتيب نظرا لأنهم كانوا يستطعمون في بعض الأحيان أولياء أمور الطلاب ولأنهم كانوا يتعاملون أحيانا بأساليب لا تليق بمعلم القرآن ، أو لأنهم كانوا أيضا على غير علم بتفسير أحكام القرآن الكريم أو لأنهم كانوا ممن قست عليهم ظروف الحياة فالتحقوا بمهنة التعليم في الكتاب ، وأيا ماكان الأمر فإنه لا يستطيع مسلم أو مؤرخ أن ينكر ما للكتاب من قيمة علمية كانت ومازالت تؤدي دورها وبنجاح في كل مكان من بلاد العالم المسلم .

ولقد يهتز نظام تعليمي أو يسقط ويستبدل بغيره ، وقد تتعرض أنظمة تعليمية ، قامت على إدارتها أجهزة حكومية قد تتعرض للفصل فتستبدل بأخرى ، وقد ينفق المال الكثير في سبيل إجراء التجارب على نظريات تعليمية وقد يثبت فشلها أحيانا أو نجاحها أحيانا أخرى ثم تعمم . أما الكتاب تلك المؤسسات البسيطة في

مظهرها ، العادية في طرق تدريسها ، البدائية في كل شيء فيها ، مناهجها ، مؤهلات معلميها ، أماكن التدريس ، مرتبات المعلمين ، إلى غير ذلك ومع هذا كله فإنها تأتي مؤسسة تربوية يتتلمذ فيها الكثيرون ويتخرج منها الكثيرون بالرغم من عدم توفُّر لإشراف المركز من قبل الجهات المسئولة عن التعليم ، وأيضا عدم الإنفاق المالي عليها بشكل منظم أو يوحي بالاهتمام .

إلا أن هذا الكتاب القائم بالجهود الذاتية أثبت وجوده كمؤسسة تربوية تساهم في تعلم القراءة والكتابة ، كما تحافظ على الإبقاء على القرآن الكريم محفوظا بالصدور ومصانا في القلوب وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر أن الكتاب قد اتسع مجال التعليم فيه خصوصا منذ عهده الأول ليشمل دراسة الحساب وأحاديث الأخبار وبعض أحكام الفقه وكذلك بعض قواعد اللغة العربية من النحو والبلاغة والشعر .

ولعلنا لا نجانب الصواب حينما نؤكد أن نجاح الكتاب في أداء هذا الدور التربوي الكبير يرجع أساسا إلى ما للقرآن الكريم من قدسية في قلوب المسلمين ، الأمر الذي ذابت أمامه عوامل التنسيق والتنميق لمظهرية أو لشكل الكتاب . والأمر هنا يرتبط بعقيدة الإنسان المسلم ، فطالما أن جانب العقيدة مرتبط ارتباطا روحيا وجوهريا بقلوب المسلمين فإنهم يركزون أساسا على الهدف من وراء إرسال أبنائهم وبناتهم للتعليم في الكتاتيب ، ألا وهو حفظ القرآن الكريم كتاب الله ودستور المسلمين .

ثانيا : المسجد :

من المؤسسات التربوية التي قامت وساهمت بجهد خلاق في مجال التعليم والتربية المسجد الذي هو بيت الله في الأرض ، والذي امتد أثره في كل الأقطار الإسلامية ، ونبع منه جهابذة العلماء والمثقفين في العلوم الدينية .

ولقد نوه القرآن الكريم بشأن المسجد فيما يتعلق بالاهتمام به والقيام بالدعوة لتعميره ، وأيضا مهاجمة من يتسبب في شأن تعطيل رسالته ، قال تعالى : ﴿ **وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا** ﴾ ، و ﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في**

الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ ، ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾.

وفي أمر طبيعة من يعمر المساجد ويقوم على خدمتها نوه القرآن الكريم أن من ينتمي إلى صفة الشرك لا يرجى منه تعمير لمسجد ﴿ **ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون** ﴾ كما بين الله أن المسجد هو مكان الصلاة والدعاء قال الله تعالى : ﴿ **قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين** ﴾ .
وإذا كانت الرسالة الأولى للمسجد تتحدد في ممارسة شعائر العبادة وهي الصلاة ، فلقد امتدت وظيفة المسجد لتشمل التوجيه والتربية والتعليم والتفقه في أمور الدين . ولقد كانت خطبة الجمعة بمثابة الدرس الرئيسي للمسلمين في أيام الجمع ، وذلك بجوار الدروس الدينية الأخرى التي كانت تعقد بالمسجد .

وبالطبع فلقد كان المسلمون يجتمعون للصلاة في كل يوم خمس مرات يسألون خلالها عما يعن لهم من أمور دينهم ودنياهم . ومما هو جدير بالذكر أن الدراسات الدينية كانت هي السمة الغالبة على الدراسة بالمسجد . ويهمنا هنا أن نوضح أن تقدم العلوم وازدهار الثقافات قد أحدث تطورا في رسالة المسجد ، ففي العصر العباسي برزت دراسة علوم جديدة مثل الأدب والنحو والمناظرة في الشعر ، ولذلك فلقد امتدت رسالة المسجد لتنال القسط الأكبر من هذه الدراسات ، ويمكن القول أن وظيفة المسجد شملت مايصلح أمر العباد في دينهم ودنياهم ، سياسيا ، ودينيا ، واقتصاديا ، وعسكريا . فلقد ثبت أن النبي ﷺ ، كان يستقبل الوفود ويعقد المؤتمرات والمعاهدات ، ومن داخل المسجد كانت تجمع التبرعات والإعانات للمساهمة في الأزمات الاقتصادية والمعارك الحربية .

المساجد الجامعة :

وعلى امتداد رقعة الإسلام في شرق الدنيا وغربها ، وشمالها وجنوبها ، أقيمت مساجد ليست بالصورة التقليدية ، ولكن أقيمت بشكل أضفى عليها سمات العظمة والرقي ، وبقيت على مدى الزمن تؤدي دورها ، ليس على أنها مكان للصلاة فقط

ولكن على أنها مساجد جامعة ، بها تقام الحلقات للدروس ، ومنها يتخرج العلماء والفقهاء ، وإليها يقصد طلاب العلم والمعرفة ليتزودوا من بحر فيضها ، فيقطعون آلاف الأميال للتلمذة على أستاذ حاز الشهرة وعلى شيخ ذاع صيته وانتشر علمه .

ولقد كان بيت الله العتيق هو المثل الأعلى والنموذج الذي ظل وسيظل هو المنبع والمنهل الأول ، والجامعة الوحيدة فوق هذه الأرض ، الذي هو أول بيت وضع للناس ، والذي جعله الله مكانا للناس وأمنا ﴿ **وإذ جلعنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ ولا غرابة أن كان البيت العتيق باتساع أركانه ، وارتفاع بنيانه ، مقرا لكثير من حلقات العلم ، تلك التي استوعبت الألوف من المسلمين ، ينهلون من العلم ويجلسون إلى العلماء والفقهاء والمفسرين .

ومن أعظم مايمكن أن نحدث به ماكان لعالم قريش وإمام الفقهاء والمحدثين الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فلقد تشرف بأن تلقى تعليمه على من كان بالحرم المكي من الفقهاء والمحدثين ، ولقد نالت الإمام الشافعي نفحات كثيرة بعد تخرجه من دراسته في بيت الله العتيق ، واستطاع أن يملأ طباق الأرض علما « عالم قريش يملأ طباق الأرض علما » . .

ولقد أجيز الإمام الشافعي من علماء وفقهاء الحرم بأن يفتي ، ولذلك فلقد انتشر الإمام الشافعي في الأمصار والبلدان ينشر علمه الجديد ، وألف مذهبا له في العراق ، ثم مذهبا آخر في مصر ، وهكذا امتد أثر المسجد الحرام ممثلا في ذيوع صيت الإمام الشافعي الذي أصبح صاحب مذهب في الفقه الإسلامى . ولقد كان الفقه ومازال يدرس في جميع المعاهد الإسلامية .

ولقد كان هذا المسجد النبوى « مسجد الرسول » الذي كان مركزا لإدارة شئون الأمة الإسلامية في مختلف جوانب الحياة ، فكان النفير للقتال يعلن من داخل المسجد ، كما أن حلقات الدرس تعقد بمسجد الرسول للرجال والنساء على حد سواء .

ولقد كان مسجد الرسول ﷺ نموذجا للممارسة الصحية لأن مسجد الرسول ﷺ كان وسيلة من وسائل الحث على التربية الصحية ، فلقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقوم بنفسه بتنحية الأقذار من المسجد ، وكان ﷺ يستجلب من

يقوم بنظافة المسجد مما كان يعلق به من قاذورات .

وعبر التاريخ نجد أيضا من المساجد الجامعة « الجامع الأزهر » الذي أنشيء في عصر الدولة الفاطمية ، ولقد غلبت على هذا الجامع سمات الجامعة في كل ماكان يدرس بداخله من علوم ودروس على غرار ماكان يتبع في مسجد عمرو بن العاص وأيضا على غرار ماكان متبعا في معظم المساجد الجامعة في قرطبة والأندلس وفي بغداد وغيرها .

وهناك من المساجد الجامعة الكثير مما لا يتسع المال لذكره في مثل هذه الدراسة التي أتت على عجل ، ولكن من المفيد أن نشير إلى بعض منها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر ، نظرا لما قامت به عبر عصور الإسلام الزاهرة من رسالة لها شأن عظيم في انتظام أمور الحياة دينيا ودنيويا .

من تلك المساجد ، الجامع الأموي بدمشق ، وكان هذا المسجد ملتقى العلماء والفقهاء ، وكان أيضا مكانا للدرس يضم بين أحضانه المسلمين من كل صوب وحدب يتلقون فيه العلم والدرس . ولقد حظي الجامع الأموي بأن درس به علماء لهم فضل كبير على العلم وكان منهم ابن مالك وابن الحاجب .

كما كان من تلك المساجد جامع المنصور ببغداد وكان مكانا لدراسة اللغة على يد عالم النحو الكسائي ، كما كان أبو العتاهية يقوم بإلقاء شعره داخل هذا المسجد .

كما كان من بين تلك المساجد مساجد المضرب والأندلس ومنها جامع القيروان وجامع الزيتونة وجامع قرطبة .

وعموما فإن دراستنا للمسجد كمؤسسة تربوية في الإسلام تأتي عرضا بينما الحقيقة أنها جديرة بأن يفرد لها من المجلدات الضخمة الكثير ، ولن يكون ذلك إلا على أيدي متخصصين في التربية الإسلامية ، الذين تكون لديهم القدرة والرغبة في إبراز مدى مساهمة المؤسسات التربوية الإسلامية ومنها المسجد في إحياء التراث الديني والفكري والعلمي .

ثالثا : المدارس :

كما سبق أن ذكرنا فلقد زخرت المساجد بالعديد من حلقات الدرس على

نطاق واسع وكبير ، ضم العلوم المتعددة ، بما كان له أثر كبير في استحداث أصوات مزعجة داخل المساجد ، وبالتالي فلقد أثر ذلك على شعور المصلين لما فيه من مخالفات شرعية ، حيث ورد النهي القطعي عن ارتفاع الأصوات داخل المساجد ، هذا وأيضا فلقد ظهرت حاجة المدرسين بتلك المساجد للبحث عن بعض الحرف التي يتمكنون من خلالها أن يسدوا احتياجات المعيشة بعد أن شغلوا كثيرا بالتعليم بتلك المساجد مما حدا بالبعض أن يتخذ من المدارس وسيلة للتكسب والارتزاق .

وأغلب الظن أن المدرسة لم تنشأ إلا بعد أكثر من ثلاثة قرون ، حيث وجدت في المجتمع الإسلامي كمكان لتلقي التعليم والمعرفة . ويبدو أن من أسباب تأخر ظهور المدارس في الإسلام يرجع إلى وجود الخلاف الفكري ، والمذاهب الدينية مثل الشيعة . أهل السنة ، مما جعل قلوب المسلمين وعقولهم تتجه صوب الفكر الديني تستمده من المؤسسة الوحيدة وهي المسجد وتطوع من خلال هذا المذهب المتبع أمور الدين بحيث يدور الفكر داخل المذهب السائد سواء ماكان منها شيعيا أو كان منها سنيا .

ومن الطبيعي أن تكون حاجة المسلمين في عهدهم الأول بالإسلام تتركز حول معرفة أصول الدين وقواعده ، وهذا يمكن تناوله داخل المساجد ، وغني عن البيان أن تكون العلوم المستحدثة مثل الطبيعة والكيمياء وغيرها محتاج إلى أماكن خاصة بحيث يمكن التركيز على إجراء التجارب العلمية داخل أماكن أعدت بشكل معين لتناسب تلك العلوم . ومما يبدو فإن احتساب المدارس كمؤسسات تربوية جعل العديد من الأمراء يتخذ من إنشائها تقربا لله تعالى ، وفي نفس الوقت ففي إنشاء المدارس مع ما لها من أوقاف فيه تأمين مستقبلي لورثة هؤلاء الأمراء الذين كانوا يخشون من استيلاء السلطان على أموالهم بعد موتهم فجعلوا من تلك المدارس ومن أوقافها ومن قيام أحد أبنائهم بالإشراف عليها وارتزاقهم التبعية من أوقافها جعلوا منه وسيلة للإبقاء على مايخلفونه من مال في أيدي أبنائهم .

وعلى أية حال فلقد بدا أن اتجاه المسلمين نحو اتخاذ المسجد مكانا للدرس غير مقبول من الناحية الشرعية وكذلك من الناحية الشكلية ، لذلك برزت الضرورة إلى اتخاذ مكان منفصل عن المسجد يكون مناسبا للدروس الدينية والعلوم الطبيعية .

ولقد كثر الجدل حول تاريخ بناء أول مدرسة وأول من دعا إلى بنائها ، وإن كان لا يهمنا هذا التحديد بشكل دقيق ــ حيث أن الأجدر بنا هو التركيز حول وظيفة المدرسة في الإسلام ، مناهجها وطريقة التدريس بها بصرف النظر عن العصر الذي وجدت فيه ، إلا أنه من المناسب أن نطوف في إيجاز حول هذه المسألة .

ولقد ركزت معظم الكتابات ونسبت إلى الوزير نظام الملك أنه هو الذي بدأ في إنشاء المدرسة النظامية ببغداد عام ٤٥٧ هـ وأتم إنشاءها عام ٤٥٩ هـ حيث استغرق بناؤها عامين .

ولقد تولى هذه المسألة بالتفصيل والشرح والمقارنة الدكتور سعيد إسماعيل في كتابه معاهد التعليم الإسلامي ، وأبرز أنه بالرغم من تركيز معظم الكتابات على أن المدرسة النظامية ببغداد التي بناها نظام الملك هي أول مدرسة بنيت في الإسلام إلا أنه أفاض في تبيان الأدلة الدامغة على أن هناك مدارس أخرى قد أنشئت قبل نظامية بغداد وعلى حد قول الدكتور سعيد إسماعيل في كتابه السابق الذكر ص ١٣٨ « ومن هنا نستطيع أن نرجع نشأة المدارس الإسلامية في الربع الأخير من القرن الرابع على أساس المؤسسة التي اختصت باسم المدرسة ، وإن كنا لا نستطيع أن نحدد أيها بالذات ظهر في هذا الوقت . أما أقدم ماعرف من نشأة المدارس المحددة فهو المدرسة الصادرية (٣٩١ هـ) في دمشق وإن كانت جمهرة من المؤرخين تؤكد أنها مدرسة ابن فحورك (٤٠٦ هـ) وإذا كان البعض الآخر يؤكد أنها المدرسة البيهقية ، إلا أن تاريخها ليس محددا .

ويستطرد الدكتور سعيد إسماعيل فيقول : ص ١٤٠ « ولعل نسبة تأسيس المدارس إلى نظام الملك ، يرجع إلى شهرته الإدارية ، وإلى كثرة المدارس التي أسسها ، وإلى دوام كثير منها وخدمتها للدولة فالمعروف أن نظام الملك قد بنى المدارس في بغداد والبصرة والموصل وبلخ ونيسابور وهراة وأصبهان ومرو وآمل بطبرستان ، حتى قيل أنه كان في كل مدينة من مدن العراق وخرسان مدرسة » .

أما من حيث تنظيم المدارس فلقد كانت تضم في كل منها إيوانا يشبه قاعة المحاضرات في عالم اليوم ، كما كانت تضم بيتا للصلاة ، كما كان يلحق بكل مدرسة أماكن لإيواء الطلبة .

أما المناهج الدراسية فكانت تتركز حول علوم الدين وكانت تخضع للتغيرات السياسية والمذهبية . ولقد كان الاتجاه الشيعي والسني في الغالب هو السائد ، وكان يوجه عملية التعليم في المدارس طبقا لنظام الدولة ومدى استجابتها أو رفضها لرأي من المذهبين السني والشيعي على السواء .

ومن حيث تمويل تلك المدارس فلقد كان ينفق على المعلمين والطلاب من أوقاف كانت تخصص لهذا الغرض وخصوصا بعد أن أخذت تلك المدارس تأخذ شكلها المنظم وتحتوي على مدرسين مهنتهم الأولى هي التدريس .

ولا يفوتنا أن نذكر أن وظيفة المدرسة في الإسلام تركزت بالدرجة الأولى حول نقل التراث الإسلامي الذي تمخضت عنه عقلية المسلمين الأوائل خصوصا خلال القرون الأربعة الأولى للعهد الإسلامى ، الذي شهد بروز العلوم الدينية التي أنجبتها قريحة العقول الإسلامية التي تربت في أحضان المدرسة الإسلامية . كما أن انتشار الفتوحات الإسلامية أكد على ضرورة أن تقوم المدرسة بنشر الثقافات الإسلامية صوب هذه البلاد التي تم فتحها .

ومن الغريب والملفت للنظر أن تأتي وظيفة المدرسة في الإسلام **كأول ركيزة من ركائز الوحدة والتماسك داخل المجتمع** ، ومن هنا فلقد فتحت المدارس أمام جميع الجنسيات والمستويات على اختلاف أشكالها وطبقاتها وألوانها .

رابعا : مؤسسات تربوية إسلامية أخرى:

وإن كنا قد أوجزنا الحديث عن أهم المؤسسات التربوية في الإسلام والتي كان على رأسها الكتاب والمسجد والمدرسة ، فإننا سوف نكون مضطرين أن نصبح أكثر إيجازا عن بعض المؤسسات التربوية الإسلامية الأخرى وذلك نظرا لطول المنهج ، ويقتصر حديثنا على القصور وحوانيت الوراقين والمكتبات والمعلمين .

القصور :

اتجه الولاة والأمراء إلى استجلاب معلمين خصوصيين لأبنائهم ، وكان هؤلاء المعلمون يقيمون معهم في قصورهم ويغدقون عليهم الخيرات ، وما لذ وما طاب من صنوف النعيم ، ولقد عرف هؤلاء المعلمين « بالمؤدبين » .

حوانيت الوراقين :

لم تقتصر حوانيت الوراقين على بيع الكتب فقط ، بل كانت تضم كثيرا من الأدباء والعلماء ، يجتمعون بهذه الحوانيت ، يعقدون فيها الندوات العلمية والمناظرات الأدبية ، وكان مما يسهل عليهم عقد تلك الندوات والمناظرات هو أن حوانيت الوراقين كانت تزخر برصيد ضخم من شتى الكتب التي حوت العديد من المعارف والعلوم والفنون .

المكتبات :

كانت توجد في بعض المدارس والمساجد كتب ضخمة تقدر بالآلاف ، ولقد كان واضحا اهتمام المسلمين باقتناء الكتب والمجلدات العلمية ، ولقد بلغ من عناية المسلمين بالمكتبات أن كان يعد لها الموظفون من كتبة وخزنة وغيرهم ممن يقومون بالدرجة الأولى بتسيهل حصول طلاب القراءة على الكتب التي يرغبون في الاطلاع عليها .

وكانت هناك مكتبات عامة تقوم بخدمة طلاب البحث والمعرفة . أما المكتبات الخاصة فكانت تقام فقط للاطلاع الشخصي للعالم وللأديب .

المعلمون :

يبدو أن احترام التعليم أضفى احتراما كبيرا على مهنة التعليم وبالتالي على المعلمين أنفسهم ، ورغما من أن المعلمين قد تعددت فئاتهم ونسبت إليهم بعض صفات الحماقة إلا أنه بعد أن تدخلت الحكومات في إنشاء المدارس ومعاهد التعليم أضفى ذلك على المعلمين الهيبة والوقار ، وخصوصا بعد أن تعهدت الحكومات بصرف مرتباتهم .

ولقد كان المعلمون ينحدرون أحيانا من الفقهاء وغالبا مايقومون بالتعليم بالكتاتيب . ومنهم نوع يسمى المؤدبون وقد كانوا يقومون بتعليم أبناء الأمراء وذوو الجاه والسلطان ، ومنهم أيضا من كان ينتمي للتدريس بالمدارس الحكومية المنتظمة .

الفصل الثانى

الأصول الاعتقادية والتعبدية للتربية الإسلامية

أصول التربية الإسلامية :

أن أصول التربية الإسلامية أصول متكاملة ومتداخلة وشاملة لكل ما يحتاجه الفرد والجماعة في كل المجالات . وهي في مجموعها تساهم في تنمية شخصية المسلم في انسجام وتكامل بحيث تتوحد معه طاقات الإنسان وتتضافر جهوده لتحقيق جميع أهداف الإسلام .

وأهم الأصول هي :

(أولا) : الأصول الاعتقادية للتربية الإسلامية .
(ثانيا) : الأصول التعبدية للتربية الإسلامية .
(ثالثا) : الأصول الفكرية للتربية الإسلامية .
(رابعا) : الأصول النفسية للتربية الإسلامية .
(خامسا) : الأصول الاجتماعية للتربية الإسلامية .

وسنتعرض لكل منها بالتفصيل نوعا ما ؛ حيث نتناول فى الفصل الثانى الأصول الاعتقادية والتعبدية للتربية الإسلامية ، بينما نتحدث عن الأصول الفكرية والنفسية للتربية الإسلامية فى الفصل الثالث أما الفصل الرابع فنخصصه للأصول الاجتماعية .

(أولا) : الأصول الاعتقادية للتربية الإسلامية :

إن الله سبحانه وتعالى هو محور العقيدة الإسلامية ، وهو خالق الكون الفسيح الواسع بكل مابه من عوالم ومخلوقات وأسرار .. لا يحصيها عد ويستعصي عليها الحصر وكل منها لو دقق الإنسان فيها النظر قليلا لوجد فيها قدرة الله الواضحة : ﴿ **والله أنزل من السماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون**﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون** ﴾[2] .

---

(١)سورة النحل ، آية (٦٥).

(٢) سورة النحل ، آية (٢ — ٦) .

والإسلام إيمان وعمل ؛ والإيمان يمثل العقيدة والأصول التى تقوم عليها شرائع الإسلام ، وعنها تنبثق فروعه . أما العمل فيشمل الشريعة ، والفروع التى تعتبر للإيمان والعقيدة .

هذا والإيمان والعمل ، أو العقيدة والشريعة كلاهما مرتبط بالآخر ، ارتباط المسبَّبات بالأسباب ، والنتائج بالمقدمات(١) .

ولقد اقترن العمل بالإيمان فى كثيرٍ من آيات القرآن الكريم ، قال تعالى : **﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾** (٢) **﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًا ﴾** (٣) **﴿ من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾** (٤) .

من هنا فإن الفرد المسلم يوقن فى قرارة نفسه بوجود الله سبحانه ، الخالق الرازق ، الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، فمعرفة المولى عز وجل توقظ الضمير داخل النفس البشرية ، وتصحح للمسلم سلوكه ، وتوجهه فى عمله الوجهة السليمة .

وبناءً على هذا ، فإن الإيمان بالله رب العالمين ، والاعتراف بربوبيته ووجوده وأنه خالق الناس ورازقهم ومحاسبهم على أعمالهم ، كل هذه جميعا من الركائز الأساسية فى مجال التربية الإسلامية ، حيث يتوقد الذهن ، ويستيقظ الضمير ، وتعلو القيم الصحيحة فوق مستوى الشبهات ، طالما أن الفرد المسلم أيقن وآمن أنه محاسبٌ على كل ماقدمت يداه . قال تعالى : **﴿ حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا، قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرةٍ وإليه ترجعون ، وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مم تعلمون ، وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من**

---

(١) السيد سابق . العقائد الإسلامية . دار الكتب الحديثة . القاهرة ط . ٣ ١٩٧٦ . صـ ٧ .

(٢) سورة الكهف آية ٣٠ . (٣) سورة مريم . آية ٩٦ . (٤) سورة النحل . آية ٩٦ .

الخاسرين ﴾[1] .

هذا والعقيدة الإسلامية تتضمن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما تتضمن الإيمان بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره . قال تعالى : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾[2] .

(١) أهمية الإيمان وضرورته كأساس من أسس التربية :

الإيمان فى اللغة : هو التصديق ، وفى الشرع : ماوقر فى القلب وصدقه العمل . والإيمان بالله سبحانه وتعالى يعنى : الاعتقاد الجازم أن الله عز وجل هو رب كل شيء ومليكه ، وخالقه ، وأنه الذى يستحق وحده أن يفرد بالعبادة ، وأنه سبحانه المتصف بصفات الكمال كلها المنزه عن كل نقص .

هذا ولا شك أن الإيمان الصحيح هو الأساس القوى للتربية السليمة ، والقرآن الكريم حينما يدعو إلى الإيمان فإنه يرشد العقل إلى مايلزم أن يؤمن به ، حيث يبدأ أولا بالبرهان على عظمة الله ثم يتفرع عن ذلك باقى العقائد .

من هنا فإن العناصر الإيمانية السليمة هى التى تستند إلى برهانٍ عقلى صحيح ، متقبلا من الفطرة السليمة ، حيث تثمر تلك العناصر شخصية سوية مسلمة منتظمة متناسقة وموحّدة مدعمة بالإيمان الصادق والبرهان الراسخ .

والعقيدة الإيمانية حينما تتعمق فى الأفراد ، وتكون القاعدة المشتركة لعلاقات الأفراد داخل المجتمع الواحد ، فإنها تسهم فى تكوين أمة لها حضارة متجانسة مع عقيدتها ودينها ، الأمر الذى يترتب عليه تناسق بين حضارة الأمة ونظمها الاجتماعية . ولا شك أن فى هذا قمة الكمال للحياة النفسية الصحيحة ، فيصبح المجتمع كالبنيان يشد بعضه بعضا .

ومن هنا فإن التربية الاجتماعية المرتكزة على الإيمان هى التى تنتج مجتمعا قويا

---

(١) سورة فصلت . آيات ٢٠ ــ ٢٣ .

(٢) سورة البقرة . آية ٢٨٥ .

حضارياً مستقيما وسليما من الأمراض والانحرافات [1].

أركان الإيمان:

لا شك أن أركان الإسلام فى مضمونها كلٌّ لا يتجزأ ، فمن كفر بواحدٍ منها أو بجزئية من لوازمها مما ثبت شرعاً من القرآن أو السنة فقد حبط عمله ولا يقبل الله سبحانه منه صرفاً ولا عدلاً ، ذلك أن الإسلام كله بناءٌ فكرىٌّ متشابك ومترابط .

هذا وينتظم مفهوم الإيمان والعقيدة فيما يأتى :

(١) المعرفة بالله والمعرفة بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، والمعرفة بدلائل وجوده ومظاهر عظمته فى الكون والطبيعة .

(٢) المعرفة بعالم ماوراء الطبيعة ، أو العالم غير المنظور ، وما فيه من قوى الخير التى تتمثل فى الملائكة ، وقوى الشر التى تتمثل فى إبليس وجنوده من الشياطين ، والمعرفة بما فى هذا العالم أيضا من جِنٍّ وأرواح .

(٣) المعرفة بالكتب المنزلة من عند الله تعالى لتحديد معالم الحق والباطل ، والخير والشر والحلال والحرام والحسن والقبح .

(٤) المعرفة بالأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله سبحانه لهداية الخلق .

(٥) الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وجزاء وثواب وعقاب وجنة ونار .

(٦) الإيمان بالقدر الذى يسير عليه نظام الكون فى الخلق والتدبير .

وهذا المفهوم للإيمان والعقيدة ، يبين الوحدة فى تلك العقيدة ، وحدة لا تتبدل بتبدل الزمان أو المكان ولا تتغير بتغير الأفراد والأقوام .

قال تعالى : **﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾** [2] .

من هنا نتبين الأثر الواضح فى حياة الأفراد والجماعات ؛ لأن المعرفة بالله من شأنها أن تفجر المشاعر النبيلة ، وتوقظ حواس الخير ، وتربى ملكة المراقبة ، وتبعث على طلب معالى الأمور وأشرفها ، وتنأى بالفرد عن الحقير من الأعمال

---

(١) ليلى عطار ، محمد المرصفى . محاضرات فى التربية الإسلامية وأشهر المربين المسلمين ١٤٠٩ هـ صـ ٣٨ .

(٢) سورة الشورى . آية ١٣ .

وسفسافها (٢) .

الآثار التربوية لعقيدة التوحيد والإيمان بالله:

لما كانت العقيدة عامة للبشر جميعا ، وخالدة مدى الدهر ، فإن لها من الآثار البينة والنفع الظاهر فى تربية الأفراد والجماعات ، مايعجز الفرد الانسان عن إدراك كنهه أو الإحاطة بمداه ، ذلك أن العقيدة يقصد بها تهذيب السلوك ، وتزكية النفوس وتوجيهها نحو المثل الأعلى ، فضلاً عن أنها حقائق ثابتة ، وهى تعد من أعلى المعارف الإنسانية إن لم تكن أعلاها على الإطلاق .

وتهذيب سلوك الأفراد عن طريق غرس العقيدة هو من أفضل الأساليب التربوية ؛ حيث أن وازع الدين وتأثيره فى القلوب ، لا يدانيه أسلوب آخر من الأساليب التى يبتكرها علماء وحكماء ورجال التربية ، ذلك أن غرس العقيدة فى النفس البشرية يسهم بقدرٍ كافٍ فى تزويدها بما هو أنفع وأرشد . وهذا اللون من التربية يضفى على الحياة ثوب الجمال والكمال . ومتى سادت المحبة ارتفعت الخصومة ، وانقطع النزاع ، وحل الوفاق وتقارب الناس ، وسعى كل فرد لخير الجماعة ، كما تحرص الجماعة على إسعاد الفرد وإصلاحه .

والعقيدة الإسلامية هى المرتكز وهى الروح لكل فرد ، بها يحيا حياة طيبة ؛ وهى النور الذى يهدى الإنسان إذا ضل الطريق ، قال تعالى : ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ (١) .

هذا ولا شك أن العقيدة هى مصدر لغرس المشاعر الطيبة ؛ والعواطف النبيلة وهى تمثل المصدر الرئيسى للتربية الصالحة ، والقرآن الكريم حينما يتحدث عن صالح الأعمال يذكر العقيدة فى طليعة تلك الأعمال قال تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن**

---

(١) السيد سابق . العقائد الإسلامية . مرجع سابق . ص ص ٨ — ٩ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٢ .

السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (١) .

ولقد استخدم رسول الله ﷺ منهج البساطة والسهولة والمنطق فى غرس العقيدة فى نفوس البشر ، ولفت أنظار الناس إلى ملكوت السماء والأرض ، فيوقظ عقولهم إلى التفكير فى آيات الله وينبه فطرتهم إلى أن يغرس فيها الشعور بالتدين ، متى ينبه الفطرة الكامنة داخل النفس البشرية فتتربى وتنمو على الإيمان واليقين (٢) .

وهذا المنهج فى التربية أخرج للعالم القادة والأئمة والمصلحون قال تعالى : **﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمـرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾** (٣) .

وسنقدم فى الصفحات التالية أمثلة ونماذج تبين كيف أن صفات الألوهية يقابلها فى النفس البشرية جوانب من الحياة النفسية ؛ فلا سعادة ولا استقامة للنفس إلا إذا ارتبط كل جانب من جوانبها بما يناسبه من معانى الألوهية (٤) .

أ ــ المثال الأول : العمل والحذر :

ميل الإنسان الفطرى إلى الرفاهية وحب البقاء والعمل للدنيا ، يقابله من ناحية الترغيب ، الأمل فى رحمة الله وجنته ، ومن ناحية الضبط ومن الشطـط يقابلهـا الشعور بأبدية الله وتفرده بالبقاء وفناء هذه الحياة .

فترى المؤمن يعمل بجد وأمل وتفاؤل من جهة لأن الحياة طريق إلى الآخرة ومن جهة أخرى يبقى حذر من الموت لا يجتر ولا يغفل فهو ينتظر ربه لا يخش إلا الله .

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٢) السيد سابق . العقائد الإسلامية . مرجع سابق ص ١٠ ــ ١٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١١٠ .

(٤) لمزيد من التفصيلات أنظر :

محاضرات فى التربية الإسلامية وأشهر المربين بين المسلمين ١٤٠٩ هـ تأليف : محمد المرصفى ، ليلى عطار . ص ٣٩ ــ ٤٥ .

ب ـــ المثال الثانى : وظيفة المال الحقيقية :

المؤمن يعلم أن مابيده من مال هو لله لأن الله مالك كل شيء ، وهو واهب الرزق لمن يشاء ؛ فالمال لا يستعبد قلب المؤمن ، فهو ينفقه بسخاء بما يعود على المجتمع وعلى الأمة والله وحده هو الرزاق ذو القوى المتين .

من هنا فالمؤمن جيد الإيمان يتميز بعزة النفس لا يستعبده جاه ولا مال ولا يذل لأحد من الجبابرة .

ج ـــ وحدة النفس البشرية :

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾(١) .

وفى هذه الآية شبه الله النفس الموحدة لربها بالعبد الذى يملكه رجل واحد فجميع تصرفات هذا العبد تأتى حسب رغبة صاحبه ، وبهذا تهدأ نفسه وتستقيم حياته وتنسجم تصرفاته وفق نظام معين وعلى نسق واحد .

أما العبد الذى يملكه شركاء عدة متشاكسون ، فلا يؤمن أن يتصرف اليوم على نمط يعاكس تصرفه بالأمس ؛ فتبقى نفسه نهب للمخاوف والهواجس كذلك المشرك الذى يعلم بفطرته عظمة الله ويشرك معه آلهة أخرى فتراه ينافق الناس مرة ويتخذ إلٰهه هواه مرة أخرى ، كما أنه يستعبده المال أحيانا فتراه يتعلق بالحياة ، حتى ينخلع قلبه من الموت أو المرض .

وهو فى جميع الأحوال قلق لا يطمئن على نفسه ولا ماله ولا على شيء من ملذاته لأنه لايؤمن بمصير معين ولا يخضع لإله واحد بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير .

وعلى المربى حينما يريد أن يحقق هذا الأثر التربوى ، أن يربط كل جوانب التربية بتوحيد الله وصفاته ، فدراسة الكون يجب أن يكون هدفها استحضار عظمة الله الخالق المالك للكون الحى القيوم الذى يقوم بكل شئون الكون وأفلاكه

(١) سورة الزمر آية ٢٩ .

ونظامه ....إلخ

وعند تدريس اللغة يستحضر المربى عظمة الله ، فى جعل الإنسان خصيماً مبيناً ويبين أن العبد محاسباً على هذه المقدرة اللغوية وفى أى مجال يجب أن يستخدمها .

د ـــ التفكر وسعة النظر :

وتربى عقيدة التوحيد والإيمان بالله عقل الإنسان على سعة النظر وحب الاطلاع على أسرار الكون ، والطموح إلى معرفة ماوراء الحس ، فكل مافى الكون مما نراه وما لا نراه من السموات والكرسى والعرش ....إلخ كل ذلك من ملك الله ، بل أن كل ماصغر أو كبر يسبح بحمد الله ويشهد بعظمته قال تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليمًا غفوراً** ﴾ (١) . وقد أمرنا المولى سبحانه وتعالى أن نتأمل فى خلق السموات والأرض والبحار والأنهار والإبل والدواب والأنعام ...إلخ قال تعالى : ﴿ **أولم يروا إلى ماخلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون . ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون** ﴾ (٢) .

هـ ـــ التواضع وعدم الغرور :

هذا كما تربى عقيدة التوحيد والإيمان بالله عند الإنسان التواضع وعدم التطرف أو الغرور بأى صفة من الصفات الإنسانية ، فإذا اغتر الإنسان بقوته وأراد أن يبطش أو يظلم ، تذكر قدرة الله العلى ، وأنه القوى القادر . وإذا اغتر بماله وأسرف وتكبر تذكر أن الله هو الغنى وهو واهب المال ، فيسعى ويعود إلى السخاء والبذل والتضحية .

والمسلم أيضا إذا اغتر بعلمه ، وظن أنه قد بلغ فيه الكمال نظر إلى الكون من حوله الذى هو جـزء من علم الله ، فانقلب بصره خاسئاً وهو حسير وعاد إلى نفسه صاغراً متواضعاً يطلب المزيد من المعرفة فى تدبر وتفكر ...إلخ قال تعالى :

---

(١) سورة الإسراء آية ٤٤ .   (٢) سورة النحل آيات ٤٨ ـــ ٤٩ .

﴿ يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ماشاء ركبك . كلا بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين يعلمون ماتفعلون ﴾ (١) .

و ـــ الإنسان يجزى بعمله :

تربى عقيدة التوحيد والإيمان بالله وبكل صفات الألوهية ، تربى عند الإنسان البعد عن التعلل بالآمال الكاذبة ، فلا تنفعه عند الله شفاعة الشافعين إلا لمن يأذن الله ويرضى . فالعمل الصالح هو الطريق الوحيد الذى يقرب العبد من ربه ؛ فليس لله قرابة رحم ولا صلة أبوة ، فالكل عباد الله والكل محاسب ومجزى بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر قال تعالى : **﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾** (٢) .

ز ـــ طمأنينة ورجاء :

الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته يزود المسلم بالطمأنينة والرجاء مع السعى وعدم التواكل ، فهو مطمئن بعد أن عرف الله قريب يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويتوب على من تاب وينصف المظلوم قال تعالى : **﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾** (٣) .

وقال تعالى : **﴿ قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء ﴾** (٤) وقال سبحانه وتعالى : **﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾**(٥) .

وفى هذا نرى التوازن بين إبعاد الغرور عن النفس ، والتسلح بالأمل والرجاء فالمؤمن يخاف عذاب الله إن قصَّر ويرجو رحمته إن أخطأ .

وبهذا يصبح الإنسان أبعد مايكون عن اليأس أو الهروب أو الانحراف ....إلخ فقد بين القرآن الكريم أن اليأس من صفات غير المؤمنين قال تعالى : **﴿ ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾** (٦) .

---

(١) سورة الانفطار آيات ٦ ـــ ١٢ .
(٢) سورة الشعراء آيات ٨٨ ـــ ٨٩ .
(٣) سورة البقرة آية ١٨٦ .
(٤) سورة الأعراف اية ١٥٦ .
(٥) سورة آل عمران آية ١٨٢ .
(٦) سورة يوسف آية ٨٧ .

من هنا نلمح أن المؤمن إذا أخطأ أو زل فإن باب التوبة مفتوح فيجدد عزمه بالتوبة ويستغفر ربه ويلجأ إلى الله قال تعالى : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا** ﴾ (١) .

ح ــ الولاء لله يورث المسلم يقظة الضمير :

لا شك أن الانتماء إلى الله والاعتزاز به والانضواء تحت لوائه يؤكد أن المؤمنين هم حزب الله وهو وليهم وأن الكافرين لا مولى لهم ، وأى شيء أعظم من الانتماء والانتساب إلى خالق الكون ومذل الجبابرة ومالك الموت والحياة والبعث والنشور والجزاء قال تعالى : ﴿ **ومن يتولَّ الله ورسوله فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى هم** ﴾ (٣) .

. وهذا الولاء يربى النفس دائماً على أن تكون فى حرب مع الشر والشيطان واتباع الشيطان أولئك الذين يزينون للناس معصية الله واتباع الشهوات قال تعالى : ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ (٤) .

هذا كما أن الانتماء إلى الله والاعتزاز به ينعكس على الأمة حيث تتربى عندها وحدة الكلمة على أساس من الخير والإيمان من غير تعصب عنصرى أو تحيز مصلحى غايته استغلال الشعوب وامتصاص خيراتها فكل من آمن بالله على بصيرة فهو من حزب الله بغض النظر عن جنسه أو عرقه أو لونه . وكذلك فكل من كفر بالله وحارب دينه وقاوم دعوته فهو من حزب الشيطان أيا كان لونه أو عرقه قال تعالى يصف عباده من أوليائه : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ (٥) .

وقد جعل الله هذا الولاء لله ورسوله وحزب المؤمنين فوق ولاء الأبوة والقرابة والرحم قال تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون** ﴾ (٦) .

---

(١) سورة الزمر آية ٥٣ .
(٢) سورة المائدة آية ٥٦ .
(٣) سورة محمد آية ١١ .
(٤) سورة المجادلة آية ٥٦ .
(٥) سورة يونس آيات ٦٢ ــ ٦٣ .
(٦) سورة التوبة آية ٢٣ .

هذا ولا بد للأمة المؤمنة أن تحارب المنافقين حتى لا يقع الشقاق والخلاف فى صفوف الأمة قال تعالى : ﴿ **بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا** ﴾ (١) .

يتضح من العرض السابق أن مفهوم الولاء لله من أهم دعائم وركائز التربية الإسلامية ، الأمر الذى يجب أن تبنى عليه أهداف التربية الاجتماعية فى جميع مراحل التدريس والحياة وأن يعاد النظر فى جميع المناهج الدراسية وعلى جميع المستويات على هذا الأساس ؛ لأن الولاء لله من تمام توحيده وعبادته كما أن الولاء للكفار مما ينافى عقيدة التوحيد ...

وعلى علماء الأمة الإسلامية أن يعيدوا النظر فى تدوين هذه العلوم على ضوء الواقع بدون تحيز إلا للحق بحيث يكشفون فى علوم التاريخ وصف المعارك التى دارت على مدى العصور بين الكفر والإيمان وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وأن يأخذوا بسير الصالحين الذين عمروا الأرض بالإيمان . وبهذا تحقق التربية الولاء لله تعالى الذى هو من عقيدة التوحيد (٢) .

(٢) الإيمان بالملائكة :

الملائكة عالم لطيف غيبى غير محسوس ، ليس له وجود جسمى يدرك بالحواس ، وهم من عالم ماوراء الطبيعة ، أو غير المنظورة التى لا يعلم حقيقتها إلا الله .

وهم مطهرون من الشهوات الحيوانية ، و مبرؤون من الميول النفسية ، ومنزهون عن الآثام والخطايا .

والملائكة : ليسوا كالبشر يأكلون ويشربون وينامون ويتصفون بالذكورة أو الأنوثة ، وإنما هم عالم آخر قائم بنفسه ، ومستقل بذاته ، لا يتصفون بشىء مما يتصف به البشر من الحالات المادية ، ولهم قدرة على أن يتمثلوا بصورة بشرية ، وغيرها من الصور الحسية .

والملائكة خلقهم الله من نور ، كما خلق آدم من طين ، كما خلق الجان من نار . روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « خلقت

---

(١) سورة النساء آية ١٣٨ — ١٣٩ .

(٢) محمد المرصفى وليلى عطار محاضرات فى التربية الإسلامية ١٤٠٩ هـ ص ٣٩ — ٤٥ .

الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » ومسكنهم السماء وينزلون منها بأمر الله [1] . روى أحمد والبخارى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لجبريل : « مايمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ! قال : فنزلت : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا** ﴾[2] » .

وطبيعة الملائكة الطاعة التامة لله ، والخضوع لعظمته ، والقيام بأوامره ، وهم يتصرفون فى شئون العالم بإرادة الله ومشيئته ، وهو سبحانه يدبر بهم ملكه ، وهم لا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم . قال تعالى : ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايأمرون** ﴾[3] .

وللملائكة عملاً فى عالم الأرواح ، وعملاً فى عالم الطبيعة ، ولهم صلة خاصة بالإنسان .

أما عملهم فى عالم الأرواح فهو :

(١) التسبيح والخضوع التام لله : ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم** ﴾[4] .

(٢) حمل العرش : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حولهم يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا** ﴾[5] .

(٣) التسليم على أهل الجنة : ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم** ﴾[6] .

(٤) تعذيب أهل النار : ﴿ **يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[7] .

وملك الوحى هو جبريل عليه السلام قال تعالى : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين**

---

(١) السيد سابق . العقائد الإسلامية . مرجع سابق ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) سورة مريم آية ٦٤ .

(٣) سورة النحل آية ٥٠ .

(٤) سورة الزمر آية ٧٥ .

(٥) سورة غافر آية ٧ .

(٦) سورة الرغد آيات ٢٣ — ٢٤ .

(٧) سورة التحريم آية ٦ .

نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ (١) .

وللملائكة عملا يتصل بالطبيعة وبالإنسان يتمثل فى تدبير أمور الكون من إرسال الرياح والهواء وإنزال المطر ....إلخ كما أنهم يلازمون الإنسان فى حياته كلها ، وبعد مماته يقول رسول الله ﷺ : « أن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء ، وعند الجماع ، فاستحيوهم وأكرموهم » .

والله سبحانه وتعالى يلهم ملائكته أن يضرعوا إليه بالدعاء ، ويسألوه برحمته التى وسعت كل شيء وعلمه الذى وسع كل شيء أن يغفر للتائبين ويدخلهم فى عباده الصالحين . وهم يكتبون أعمال الإنسان ويحصون عليه حسناته وسيئاته كما أنهم يثبتون المؤمنين بما يلقونه فى قلوبهم من التأييد (٢) .

الآثار التربوية للإيمان بالملائكة :

١ ـــ الاقتداء بالملائكة عن طريق تزكية النفس وتطهير القلب وعبادة الله بخشوع .
٢ ـــ التعود على النظام والطاعة وتحقيق خلافة الإنسان لله فى الأرض .
٣ ـــ تثبيت الإيمان فى قلوب المؤمنين عن طريق علاقة الحب والتأييد والعون والنصرة لأن الملائكة أحباب للبشر (٣) .

(٣) الإيمان بالكتب السماوية :

لكل نبى رسالة بلغها إلى قومه وقد أوحى الله إلى أنبيائه ورسله كتباً دوَّن فيها التعاليم والوصايا التى أمر الله بها عباده قال تعالى : **﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾** (٤) .

---

(١) سورة الشعراء آيات ١٩٣ ـــ ١٩٤ .
(٢) المرجع السابق . ص ١١٧ ـــ ١١٩ .
(٣) مصطفى عبد الواحد . شخصية المسلم كما يصورها القرآن . مكتبة المتنبى . القاهرة ط ٤ ١٩٧٥ ص ٦٣ .
(٤) سورة البقرة آية ٢١٣ .

والكتب المنزلة هى التوراة وقد أنزلت على موسى والإنجيل وقد نزل على عيسى والزبور وقد نزل على داود والقرآن وهو آخر الكتب السماوية وقد نزل على محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان** ﴾ [١] .

ويهمنا فى هذا المقام أن نبين أن الإيمان بالكتب السماوية التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ركن من أركان الإيمان إلا أننا لم نكلف أن نؤمن بها تفسيراً إنما يجب أن نؤمن بها جملة قال تعالى : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله** ﴾ [٢] .

مميزات القرآن الكريم:

تميز القرآن الكريم بما يأتى : —

(١) اشتمل على خلاصة التعاليم الإلهية التى وردت فى الكتب السماوية المنزلة ومنها التوراة والإنجيل . كما أنه أيد ماجاء بها من عبادة الله وحده والإيمان برسله والتصديق بالجزاء ووجوب إقامة الحق والتخلق بمكارم الأخلاق . قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه . فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾ [٣] .

(٢) تعاليم القرآن هى كلمة الله الأخيرة لهداية البشر أراد الله لها أن تبقى على الدهر وتعيش مع الزمن وقد حفظ الله القرآن من التحريف أو التصحيف أو التغيير قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[٤] والآية تبين أن حجة الله باقية وقائمة على الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(٣) القرآن كلام الله وكل مافى الكون عمل الله ، وكلام الله وعمله لا يتناقضان أبداً بل يصدق أحدهما الآخر

---

(١) سورة آل عمران آيات ٢ — ٤ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٨٥ .
(٣) سورة المائدة آية ٤٨ .
(٤) سورة الحجر آية ٩ .

ومن هنا فلا يمكن أن يتصور عاقل أن تأتى حقيقة علمية مهما كانت تتعارض مع أى حقيقة من حقائق القرآن ؛ ومن ثم فإن حقائق العلم مصدقة لما سبق به الكتاب على وجه التحقيق قال تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد** ﴾ (١) .

(٤) يسر الله سبحانه وتعالى حفظ القرآن وسهله بحيث لا يشق على الناس فهمه أو يصعب عليهم العمل به قال تعالى : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾(٢) .

والقرآن بهذا لا يساويه ولا يقاربه كتاب آخر فى تأثيره وفى هدايته وفى حسمه ومن ثم كان خير الكتب وأفضلها على الإطلاق (٣)* .

الآثار التربوية للإيمان بالقرآن وتلاوته والعمل به:

لا شك أن الآثار التربوية لا يمكن أن تنحصر وأن توصف فهى أكبر من أن يحصيها عدد أو أن يصفها قلب ولكن يمكن تقديم بعض الآثار التربوية على النحو التالى :

* القرآن الكريم يربى الفرد المسلم على الاستقامة والأخلاق القويمة لما فيه من العبر والحكم .. إلخ قال تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً** ﴾(٤) .
* القرآن الكريم يربى الإنسان على أن يعمل عقله وفكره ويتدبر ويتأمل ويستنتج ويقيس ويستقرىء قال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ (٥) .
* يسهم القرآن الكريم فى تعليم الفرد التدرج فى الفهم وعدم السرعة فى إصدار الأحكام بل لابد من التروى والتأنى قال تعالى : ﴿ **وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** ﴾ (٦) .

---

(١) سورة فصلت آية ٥٣ . (٢) سورة القمر آية ١٧ .

(٣) العقائد الإسلامية . مرجع سابق ص . ص ١٦٠ — ١٦١ .

* المزيد من التفاصيل حول مميزات القرآن الكريم أنظر ص ص ١٨ — ٢٠ من هذا الكتاب .

(٤) سورة الإسراء آية ٩ . (٥) سورة محمد آية ٢٤ . (٦) سورة الإسراء آية ١٠٦ .

* يربى القرآن الكريم المسلم على فصاحة اللسان ويطبع قلبه على حس البيان فيصبح واضح القصد والمراد قال تعالى : ﴿ **بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾ (١) .

* يربى القرآن الكريم الفرد على الخوف والخشية والرغبة والرهبة وترقيق القلب والمشاعر ؛ حيث أن القرآن يوقظ العواطف قال تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء** ﴾ (٢) .

ولا تقتصر الآثار التربوية للقرآن الكريم على هذا فهناك من الآداب والسلوك والفضائل الكثير الغزير مثل غض البصر وخفض الصوت والبر بالوالدين والتواضع وإخفاء الصدقات وغير ذلك .

ومن هنا نجد فى تلاوة القرآن تربية للعقل والمشاعر والعواطف ....إلخ (٣)

* ومن يبتغى الحق لا يجد أمامه سوى القرآن فهو الجامع للمبادىء السامية وللمناهج والنظم القويمة والحافل بالعقائد والعبادات والمعاملات والنظم . والقرآن الكريم هو الكفيل بتربية الفرد تربية شاملة متكاملة كما أنه يربى الأسرة الفاضلة والمجتمع الصالح والحكومة العادلة ، ويرفع الظلم والعدوان عن المقهورين كما أنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق الخلافة فى الأرض (٤) قال تعالى : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ (٥) .

(٤) الإيمان بالرسل :

إن الإيمان بالرسل واجب فالمسلم يؤمن بالأنبياء جميعاً ويعلم أن ذلك أصل

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٩ . (٢) سورة الزمر آية (٢٣) .
(٣) محمد المرصفى ـــ ليلى عطار محاضرات فى التربية الإسلامية . مرجع سابق ص ٤٨ ـــ ٤٩ .
(٤) العقائد الإسلامية . مرجع سابق ص ١٦٥ .
(٥) سورة المائدة آية ١٦ .

من أصول الإيمان وقد ميز الله الرسل بخصائص عليا تعينهم على أداء واجبهم وحمل رسالتهم ، وفى نفس الوقت فإنهم لم يخرجوا عن حدود البشرية ولم يتعالوا على واقع الحياة ؛ فالأنبياء معصومون من نزعات السوء ومن سقاطات الشهوة والطمع كما أنهم يتصفون بكمال الخلق وثناء العقل وعلو الهمة وطهارة النفس ونقاء السريرة (١) .

الآثار التربوية للإيمان بالرسل :

* هداية المسلم إلى الحق واستقامته على الطريق تنبع أصلاً من إيمانه ومن يقينه بنبوة محمد ﷺ وأنه مؤيد بالوحى والإلهام .

لما كان الناس فى حاجة إلى من يصلح حياتهم ولما كان محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء كما أن رسالته عامة شاملة إنسانية عالمية فإن هذا يربى عند المجتمعات الوحدة والتآلف وروح الإنسانية العالمية تحت خالق الناس ومربيهم قال تعالى : ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾ (٢) .

* اختص الله الأمة الإسلامية بأن بعث إليهم محمد ﷺ وأرسله إلى الناس كافة قال تعالى : ﴿ **قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا** ﴾ (٣) .
* الإطار النظرى للتربية الإسلامية التى وضع أسُاسها الإسلام تربية تناسب الفطرة الإنسانية وتتوافق مع الطبيعة البشرية .

(٥) الإيمان باليوم الآخر :

الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان وجزء من أجزاء العقيدة والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بالمصير الذى ينتهى إليه هذا الموجود وعلى ضوء المعرفة بالمصير يستطيع الإنسان أن يحدد هدفه ويرسم غايته ويتخذ من الوسائل ما يوصل إلى الهدف ويبلغ به الغاية .

والقرآن الكريم يلفت نظر الإنسان إلى أن الله لم يخلقه من غير هدف لأن

---

(١) شخصية المسلم كما يصورها القرآن . مرجع سابق . ص ص ٧٤ ــ ٧٥ .
(٢) سورة المؤمنون آيات ٥١ ــ ٥٣ . (٣) سورة الأعراف آية ١٧٨ .

ذلك يتنافى مع حكمة الله العليا (١) قال تعالى : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ (٢) .

الآثار التربوية للإيمان باليوم الآخر :

* **تربية الشعور الحقيقى بالمسئولية** الإيمان باليوم الآخر هو الوازع والدافع الحقيقى وراء الشعور بالمسئولية الحقيقية فبدون هذا الإيمان لا يتربى الشعور بالمسئولية ؛ فمن سمات الشريعة الإسلامية أنها لا تجبر الخلق على اعتناقها وإنما تعود الناس التقبل للمسئولية بطواعية دون حاجة إلى قهر أو إرغام ودون تهرب من القانون الإلهى خصوصاً إذا أدركنا أن الملائكة يكتبون ويحصون على الإنسان كل مايفعله أو يقوله وأيضاً حينما يدرك المسلم أن يوم الحساب والجزاء آت لا ريب فيه .

من هنا فإن منهج الإسلام فى التربية يشعر الفرد بتمام المسئولية خوفاً من الوقوف للحساب بين يدى الله ﴿ **يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ (٣) .

* **تحقيق الأخلاق الفاضلة المطلقة :**

الإيمان باليوم الآخر يخلص الإنسان من الأنانية والنفاق والرياء ويعلمه التضحية والصبر والسمو خصوصاً لأن الفرد المسلم يعلم أنه ينتظر جزائه عند الله لا عند المجتمع ولا عند الناس . من هنا فإن سلوكه وحياته تستمر فى ثبات وعدم تقلب لأن يوم الجزاء آت لا ريب فيه فى موعده الذى قدره الله له ؛ لذلك فإن أخلاق المؤمن تأتى ثابتة لا تتزعزع بأى عرض من أعراض الدنيا الفانية .

* **انضباط الدوافع والغرائز :**

لما كان الإسلام قد وضع لكل غريزة مايناسبها وما يسمو بها ويبتعد عن الوقوع فى الرذائل والمنكرات ولما كان لكل دافع غريزى من الترغيب والترهيب ما يبين

---

(١) العقائد الإسلامية . مرجع سابق . ص ٢٥٣ . (٢) سورة المؤمنون آية ١١٥ .

(٣) سورة الشعراء آيات ٨٨ ــ ٨٩ .

أن شريعة الله قد راعت فطرة الإنسان وحاجته لما كان الأمر كذلك ولما كان الإنسان قد زوده الله بالعقل فإنه يستطيع أن يتحكم بعقله فى جميع القوى الغريزية الجامحة . يفعل المسلم كل ذلك خوفاً من الله وطمعاً فى جنته .

والإسلام فى هذا يعترف للفرد بحاجاته فلم يكبتها أو يحبطها وإنما وجهها ، وتوجيه الدوافع فى الإسلام خير ألف مرة من كبتها كما نلمحه فى العقائد الأخرى التى تبالغ فى الزهد ولا تراعى الفطرة الإنسانية .

*** إيثار الآخرة على الدنيا والصبر على الشدائد :**

لا شك أن مغريات الحياة وزينتها وما يقابلها من المصائب والشدائد التى تصيب أفاضل الناس لا علاج لها إلا مايربيه القرآن فى نفوسنا من إيثار الآخرة على الدنيا .

وأمامنا نموذج فى نساء رسول الله ﷺ وقد طالبنه أن يمتعهن بزينة الحياة الدنيا فنزل قوله تعالى : ﴿ **ياأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما** ﴾ (١) وقد اختارت زوجات النبى ﷺ الله ورسوله والدار الآخرة وبقين فى كنف رسول الله يصبرن عن شظف العيش قال سبحانه : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى** ﴾ (٢) .

*** تربية العقل على الفطرة السليمة :**

أن كل من يفكر فى هذا الكون بدون تحيز يستطيع أن يصل إلى :

أ ـــ أن كل مافى الكون من حياة وموت وتغير وضعف وأفول وشروق يدل أن الكون سائر إلى الزوال ومسير بغير إرادته .

ب ـــ يقضى الإنسان حياته فى تعب وفى نزاع وخصومة وفى نزال مع المجتمع بينما هو يتمتع بالعقل والتمييز بين الخير والشر ، كما يرى أن الحياة لها نهاية بالموت وأيضا يرى أن من الناس ظالماً ومحسناً وصالحاً وطالحاً فهل يعقل الإنسان أن

---

(١) سورة الأحزاب آيات ٢٨ ـــ ٢٩ .
(٢) سورة الأعلى آيات ١٧ ـــ ١٨ .

يستوى هذا كله بمعنى أنه طالما مصير أعمال الناس إلى فناء من غير تمييز بين المحسن والمسيىء فإن العقل الصحيح والفطرة السليمة تؤكدان أن هذه الحياة لا بد لها من غاية ولا بد لها من هدف كما أنهما لا يستصيغان أن هذا الكون البديع المنظم مصيره إلى الفناء بغير هدف ولا غاية .

ج — هذا الكون بسمائه وأرضه ونجومه وأفلاكه يدل على وجود خالق مبدع وراء هذا العالم وهذه النتيجة يتوصل إليه العقل السليم بفطرته .

د — بالقياس المنطقى على خلق الله لهذا الكون وما فيه ومن فيه يستلزم من العقل المميز البعيد عن التحيز أن الذى خلق الكون أول مرة قادر على إعادته خلقاً جديداً .

لا شك أن هذه السلسلة من التفكير تؤدى كل حلقة منها إلى غيرها هى التى بنى عليها القرآن أدلته على وجود الله وعلى اليوم الآخر والبعث والنشور . والتربية الإسلامية هى التى تنمى العقل الإنسانى على التفكير السليم والارتباط المنطقى بين المقدمات والنتائج كما تربى على ألا يستصيغ العبث وانعدام الغاية والخضوع للمصادفة فكل ذلك ليس من الفطرة العقلية السليمة فى شىء ، والله لا يرضى لنا أن يكون عقلنا محوج سقيم قال تعالى : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ لأن الكفر بوجود الله واليوم الآخر خضوع العقل للعبث والمصادفة وعدم التعليل الصحيح [١] .

٦ — الإيمان بالقدر خيره وشره :

معنى القدر : تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية التى تتحدث عن القدر قال تعالى ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾ [٢] وقال تعالى : ﴿ **وإن من شىءٍ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدرٍ معلوم** ﴾ [٣] وقال جل شأنه : ﴿ **وكل شىءٍ عنده بمقدار** ﴾[٤] .

وهذه الآيات مجتمعة تدل على أن المقصود بالقدر : « النظام المحكم الذى وضعه الله لهذا الوجود ، والقوانين العامة ، والسنن التى ربط الله بها الأسباب

---

(١) محمد المرصفى — ليلى العطار محاضرات فى التربية الإسلامية . مرجع سابق ص ص ٥١ — ٥٤ .
(٢) سورة القمر . آية ٤٩ . (٣) سورة الحجر . آية ٢١ . (٤) سورة الرعد آية ٨ .

بمسبباتها » (١) .

هذا وقد عرَّف الإمام النووى القدر بقوله : « إن الله تبارك وتعالى قدر الأشياء فى القدم ، وعلم ــ سبحانه ــ أنها ستقع [فى] أوقات معلومة عنده ــ سبحانه وتعالى ــ وعلى صفات مخصوصة . فهى تقع حسب ما قُدِّر لها » (٢) .

وقد ورد فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ قال : إن الإيمان بالقدر جزءٌ من العقيدة ، ويكون المعنى أن الله خلق النواميس والقوانين والنظم التى وضعها لهذا الوجود ، وأن الأشياء تجرى وتدور حسب النظم والقوانين والسنن . قال تعالى : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلكٍ يسبحون** ﴾ (٣) .

وبهذا يكون الإيمان بالقدر جزءاً من عقيدة المسلم وليس فيه معنى الإجبار .. قال الخطاب : « قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه العبد على ماقدره وقضاه ... وليس الأمر كما يتوهمون . وإنما معناه الإخبار عن تقديم علم الله سبحانه بما يكون من اكتسابات العبد ، وصدورها عن تقديرٍ منه تعالى ، وخلقه لها . خيرها وشرها ... والقدر اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر » (٤) .

الآثار التربوية للإيمان بالقدر :

(١)**العمل والنشاط والإيجابية** :الإيمان بالقدر يعطى الفرد المسلم انطلاقة قوية ويكشف طاقاته ليعرف سنن وقوانين الله فى الكون ، ويعمل بمقتضاها فى البناء والتعمير ، فيكتشف من كنوز الأرض وينتفع بما أودع الله فى الكون من خيرات . ولا شك أن هذا المنهج يربط المسلم بربه ؛ فيرتفع إلى معالى الأمور : من الإباء

(١) السيد سابق . العقائد الإسلامية . مرجع سابق . صـ ٩٦ .
(٢) المرجع السابق . صـ ٩٣ . (٣) سورة يس . آية : ٣٧ .
(٤) السيد سابق . العقائد الإسلامية . مرجع سابق . صـ ٩٤ .

والشجاعة والقوة من أجل إحقاق الحق ، والقيام بالواجب .

(٢) **الشخصية السوية** : الإيمان بالقدر يكشف أمام المسلم أن كل شيء فى الوجود إنما يسير وفق حكمة عليا ، فإذا مسه الضر فإنه لا يجزع ، وإذا صادفه التوفيق والنجاح فإنه لا يفرح ولا يبطر ، وإذا برىء الإنسان من الجزع عند الإخفاق والفشل ، ومن الفرح والبطر عند التوفيق والنجاح ، أصبح إنساناً سويا متزناً ، بالغاً منتهى السمو والرفعة . يفسر هذا قوله تعالى : ﴿ **ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختالٍ فخور** ﴾ [(١)] .

ولا شك أن هذا الفهم لمعنى القدر هو مايجب على كل مسلم أن يلتزم به ؛ حيث أن هذا الفهم هو بعينه مقتضى فهم رسول الله ﷺ وفهم أصحابه رضى الله عنهم جميعا ؛ فقد دخل رسول الله ﷺ يوما على الإمام على كرم الله وجهه بعد صلاة العشاء ، فوجده قد بكَّر بالنوم ، فقال له : هلَّا قمت من الليل ؟ فقال : يارسول الله ، أنفسنا بيد الله ، إن شاء بسطها ، وإن شاء قبضها ، فغضب رسول الله ﷺ ، وخرج وهو يضرب على فخذه ويقول : ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلا** ﴾ .

هذا كما يروى أن أحد اللصوص سرق ، فلما حضر بين يدى عمر رضى الله عنه ، سأله لم سرقت ؟ فقال قدر الله علىَّ ذلك ، فقال عمر رضى الله عنه اضربوه ثلاثين سوطاً ، ثم اقطعوا يده ، فقيل له : ولم ؟ فقال : يقطع لسرقته ، ويضرب لكذبه على الله .

(٣) **تحقيق الأهداف الكبرى** : الإيمان بالقدر ليس يعنى التواكل والقعود عن العمل أو ذريعة لاكتساب المعاصى ، بل عكس ذلك صحيح ، فهو وسيلة لتحقيق الأهداف والغايات الكبرى من الأعمال الجليلة ؛ فإن القدر يدفع بالقدر ، فيدفع قدر الجوع بقدر الأكل ، وقدر الظمأ بقدر الرى وقدر المرض بقدر العلاج والصحة ، وقدر الكسل بقدر النشاط والعمل .

---

(١) سورة الحديد . الآيات ٢٢ — ٢٣ .

وهكذا يتضح أن الإيمان بالقدر خير معين على العمل ، فقد كان يمكن للرسول وصحابته أن يستكينوا كما يستكين الضعفاء الواهنين ، معللين أنفسهم بالفهم المغلوط الذى يتعلل به الفاشلون ، ولكن الرسول صلوات الله وتسليماته عليه كشف لصحابته وأمته وجه الصواب ؛ فلم يهن ولم يضعف ، واستعان بالقدر على تحقيق رسالته الكبرى ، ملتزما فى ذلك بسنة الله فى نصره لعباده ، فقاوم الفقر بالعمل ، والجهل بالعلم ، والمرض بالعلاج ، والكفر والمعاصى بالجهاد ، وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن . والعجز والكسل . وليس أدل على ذلك من غزواته المظفرة التى كانت دليلا عمليا على قوة إرادته التى تجرى حسب مشيئة الله وقدره[1] .

(٤) **العزم والقضاء على التردد** : المؤمن الذى أيقن بقـدر الله يعتبر أكثر عزيمة فى الإقدام ، خصوصاً إذا استخار ربه ، فإنه يقبل على العمل دون تردد أو خوفٍ ، فهو يوقن أن جميع الظروف والاحتمالات التى يمكن أن تكون غير واقعة فى طوقه وحسبانه ، إنما هى مما وقع فى علم الله وقدره ، وأن الله مؤيده ، فإذا يسر له ماعزم عليه فهو الخير المقدر له ، أو ليصرف الله عنه شراً كان محتملا [2] .

(٥) **عدم الندم أو الحسرة على مافات** : المؤمن جيد الإيمان لا ينوح ولا يتحسر على مافاته ، فإن ذلك لن يرد عليه شيئا مما مضى وفات ، فهو قد أدرك ما قُدِّر له وما قضاه المولى عز وجل له ، ولا اعتراض على ماقدر الله مادام قد وقع ، ولكن وفى نفس الوقت عليه أن يعتبر ؛ فيتوب من الخطأ أو الذنب ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

(٦) **الجرأة أمام الموت** : لا يمكن لنفس أن تموت إلا بإذن الله ، بعد أن تستوفى أجلها الذى كتبه الله لها ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا** ﴾ [3] .

---

(١) السيد سابق . العقائد الإسلامية . مرجع سابق . صـ ٩٦ .

(٢) محمد المرصفى ، ليلى عطار . محاضرات فى التربية الإسلامية وأشهر المربين المسلمين مرجع سابق . صـ ٥٤ .

(٣) سورة آل عمران . آية ١٤٥ .

من هذه الآية نستنتج أن الفرد المسلم إذا تربى على الجرأة أمام الموت فقد أصبح جريئاً أمام كل شيء من فقد مالٍ أوْ ولدٍ أو جاه ، أو أمام مرضٍ أو أى مصابٍ آخر ، مادام يؤمن بأنه مقدر من الله .

(٧) **التفاؤل والرضا وقطع دابر التشاؤم** : المؤمن عليه أن يتفائل دائما ، وعليه كذلك أن لا يعلّل المصائب بعلل أو أسباب غير صحيحة ، كالتشاؤم من صوت البوم ، أو كتشاؤم الكفار بأنبيائهم مع أن كفرهم هو الذى كان شؤماً عليهم . قال تعالى فى شأن ماقاله الكفار لأنبيائهم : ﴿ **قالوا إنا تطيرنا بكم ، لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذابٌ أليم ، قالوا طائركم معكم ، أئن ذكرتم ؛ بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ (١) .

(٨) **التفسير الصحيح للظواهر الكونية** : الإيمان بالقدر يربى المؤمن على التعقل وعدم تعليل الأمور حسب هواه ومصلحته ، بل عليه أن يدرك أن لكل ظاهرة كونية فوائد ومضار فيطلب فوائدها ويبتعد عن مضارها (٢) .

ثانياً : الأصول التعبدية للتربية الإسلامية

معنى العبادة : العبادة فى الإسلام لا تقتصر فقط على مناسك التعبد المألوفة من صلاة وصيام وزكاة وحج ... إلخ ، إنما العبادة فى الإسلام لها معانى أعمق من هذا إنها العبودية المطلقة لله رب العالمين ، إنها التلقى من الله وحده فى أمر الدنيا والآخرة ، إنها الصلة الدائمة بالله عز وجل ، هذه الصلة فى حقيقتها هى منهج التربية كله ، تتفرع منه جميع الفرعيات وتعود فى النهاية كلها إليه .

من هنا فالصلاة والصيام والحج وسائر الشعائر التعبدية ، إن هى إلا مفاتيح ... مجرد مفاتيح للعبادة ، أو « محطات » يقف عندها السائرون فى الطريق يتزودون بالزاد . ولكن الطريق كله عبادة ، وكل ما يقع فيه من نسك أو عمل ، أو فكر أو شعور فهو كذلك عبادة ... مادامت وجهته إلى الله مادام حقاً قد شهد ــ ليس فقط بلسانه ــ أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقام حياته كلها

---

(١) سورة يس . آيات ١٨ ــ ١٩ .

(٢) محمد المرصفى ، ليلى عطار . محاضرات فى التربية الإسلامية . مرجع سابق ص ٥٥ ــ ٥٦ .

وواقعه كله على هذا الأساس .

وبناء على هذا التفسير ، فالعبادة تشمل الحياة ولا تقتصر فقط على اللحظات القصيرة التى تشغلها مناسك التعبد . وما كان هذا هو القصد من الآية الكريمة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1] وإلا فما قيمة لحظات عابرة فى صفحة النفس وفى صفحة الكون ، لا تكاد تترك لها أثراً وتضيع فى الفضاء ؟

إنما قيمتها أن تكون منهج حياة يشمل كل الحياة . قيمتها أن تكون خطة سلوك وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور ، قائمة كلها على منهج واضح ، تبين فيه وفى كل لحظة ـــ ما ينبغى وما لا ينبغى أن يكون .

ومرد الأمور كلها فى ذلك هو الله ، هو المرجع الذى يرجع إليه فى كل أمر ، ودستوره هو الدستور الذى يستشار فى كل لحظة . يستشار فى داخل القلب وفى وعى العقل وفى واقع السلوك .

وإيجاد الصلة بين القلب البشرى وبين الله ، الصلة الدائمة التى تدفع القلب إلى الرجوع إلى الله فى كل لحظة ، واستشاره دستوره فى كل أمر هو القاعدة الرئيسية للتربية الإسلامية التى بها يتم كل شيء ، ومن دونها يصبح كل شيء خواء .

والإسلام يتخذ لهذا كل وسيلة من الوسائل الموصلة ، بالتوقيع على كل وتر من أوتار النفس ... وربط هذا التوقيع بالله[2] رب العالمين .

والتربية الإسلامية تؤكد أنه لا ضمان للخير الحقيقى فوق هذه الأرض إلا بعقد الصلة الحية التى تصل بين القلب البشرى والله فلا ضمان لإقامة الحق والعدل الأزليين إلا بالتقاء البشر كلهم عند خالقهم ، ومن ثم استشعار الرابطة الإنسانية الحقيقية التى تربط الجميع .

وإذ يدرك الإسلام هذه الحقيقة ، فإنه يجعل العبادة هى القاعدة الكبرى ويستمد منها نظام الحياة كله .

والإسلام يربى الفرد على أن تكون صلته بالله دائمة فى كل لحظة من

---

(١) سورة الذاريات . آية ٥٦ .

(٢) محمد قطب . منهج التربية الإسلامية . الجزء الأول . دار الشروق ط ٦ . القاهرة ١٩٨١ م ـــ ١٤٠١ هـ . ص ٣٤ ـــ ٣٥ .

اللحظات ، كما يحرص الإسلام على أن يتعامل المسلم مع الله دائماً ؛ فهو يخشى الله ، ويحب الله ، ويرجع دائماً إلى منهج الله ، سواء في خلوته ، فى تعبده ، فى عمله ، فى وقت تعامله فى التجارة ، فى الصناعة ، فى السياسة ، فى الحرب ، فى السلم ، فى وقت المودة وفى وقت الخصومة .

هذه هى العبادة فى مفهوم الإسلام ، فليس معناها أن يتنسك الإنسان ويتزهد ويترهبن ، أو تستولى التقوى على قلبه فى السجود والركوع فإذا انتهى من صلاته هبت فى داخل نفسه نوازع الطمع والجشع والعدوان ، أو تخاذل عن القيام بالأمانة ، أو ضعف عن نصرة الحق ، أو تواكل عن العمل المنتج فى عالم الحس .

والواقع أن العبادة الحقيقية ليست كذلك إنما هى السير فى الطريق مع التزود بالتقوى التى تدفع إلى العمل ، فالتقوى هى الشحنة الحية التى تعبىء القلب ، فتكون الهادى له فى الطريق . تهديه وهو فى خلوته يفكر ويشعر ، وتهديه وهو يعمل ، تهديه وتضيء له الطريق .

من هنا فالإسلام صريح فى اعتبار العمل هو العبادة مادام القلب يتجه فيه إلى الله[1] . قال تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين. وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأ س. أولٰئك الذين صدقوا وأولٰئك هم المتقون** ﴾[2] .

الأثر التربوى للعبادة :

* **تكوين الشخصية المؤمنة الصابرة** : لا شك أن العبادة بمفهومها الواسع تؤدى إلى تهذيب النفس وضبط الدوافع وتوجيه الرغبات وصقل شخصية المسلم ، واستقامة خلقه . والعبادات كلها من صلاة وصيام وزكاة وحج ... إلخ فيها آثار عظيمة فى طمأنينة النفس وتطهيرها من الذنوب والمعاصى وتدريبها على المجاهدة والسمو بها عن الدنايا والصغائر والالتزام والانضباط ، مما يدفع المسلم إلى الأمام ويهبه

---

(١) المرجع السابق . ص ص ٣٦ — ٣٧ . (٢) سورة البقرة . آية : ١٧٧ .

القدرة دائماً على العمل والجد والإنتاج ... إلخ .

* **حب الخير والاستكثار من أعمال البر:** كما سبق أن أسلفنا فلا تقتصر العبادة على الصلاة والزكاة والصيام والحج فقط ؛ إنما تتضمن أيضاً سائر أعمال الخير والبر والمعروف ، فهذه كلها تصبغ حياة المسلم وأعماله بالصبغة الربانية وتجعله دائماً مشدوداً إلى الله فى كل ما يؤديه للحياة ، فهو يؤدى ذلك بنية العابد الخاشع ، وروح القانت المخبت ، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع ، وكل إنتاج صالح ، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة ، على أمثل وجوهها ، وهذا بدوره يزيد رصيده فى الحسنات والقربات عند الله عز وجل .

* **وحدة الوجهة والغاية:** العبادة بمفهومها الواسع تمنح المسلم وحدة الوجهة ووحدة الغاية فى حياته كلها ، فهو يرضى رباً واحداً فى كل ما يؤديه من عمل ، ويتجه إلى الله عز وجل فى أعماله كلها بشخصية سوية وبدون ازدواجية فى شخصيته أو فى حياته ، حيث أنه ليس ممن يعبدون الله فى الليل ... ويعبدون المجتمع بالنهار ، أو يعبدون الله فى يوم من أيام الأسبوع ثم يعبدون ما سواه ومن سواه فى سائر أيام الأسبوع . والمؤمن فى جميع أحواله يعبد الله وحده حيثما كان وكيفما كان . وفى أى عمل كان فوجه الله لا يفارقه فى عمل ولا حال ولا زمان [1] قال تعالى : ﴿ **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ [2] .

(١) محمد المرصفى ، ليلى عطار ، محاضرات فى التربية الإسلامية . مرجع سابق ص ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) سورة البقرة : آية : ١١٥ .

الفصل الثالث

الأصول الفكرية والنفسية للتربية الإسلامية

أولاً : الأصول الفكرية للتربية الإسلامية :

مقدمة : ميز الله الإنسان بالعقل . والعقل يعتبر من القوى والطاقات التى تدرك بها الأشياء وتتميز ، وتوجه لمعرفة الحق والباطل واستنباط الأحكام . هذا وقد خلق الإنسان مزوداً بالأدوات المعرفية التى تساعده على الكشف عما غمض عليه. قال تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ .

والتربية الإسلامية تقوم على مجموعة من الأسس من أهمها :

(١) تحرير العقل من سائر القيود والأغلال عدا الضوابط المنطقية التى تسهم فى تحرير العقل من الجهل والتقليد والتعصب الأعمى . والمعايير التى ينبنى عليها هذا الأساس تتركز فى :

* عدم الإكراه على الدخول فى الإسلام ، ولا يقبل إيمان عن إكراه قال تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى** ﴾ .
* الدعوة إلى التفكير المنطقى الهادىء ، فكثير من التكاليف مذيلة بالدعوة إلى العقل والتفكر . قال تعالى : ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾ ﴿ **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب** ﴾ ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ كما ربط التفكير بالسنن الكونية . قال تعالى : ﴿ **قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ كما ربطت الطاقة العقلية باستغلال خيرات الأرض واستثمارها ﴿ **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾
* إهمال الاستخدام الصحيح للعقل مرفوض ؛ فقد نعى القرآن الكريم على

المقلدين أن يهملوا عقولهم . قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ .

* احترام حرية الفكر ، فقد قام الإسلام على الدعوة الكريمة والنظام القويم . قال تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾[1] .

(٢) إثارة الحواس والوجدان ... لأنها من أبواب الفكر ، حيث دعت التربية الإسلامية من خلال القرآن الكريم إلى التأمل فى بديع صنع الله فى الكون . قال تعالى : ﴿ **أو لم ينظروا فى ملكوت السمٰوات والأرض وما خلق الله من شىء** ﴾ كما يستثير القرآن الكريم حاسة السمع قال تعالى : ﴿ **فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولٰئك الذين هداهم الله وأولٰئك هم أولوا الألباب** ﴾ والقرآن الكريم يثنى على من يميز بين الخير والشر والحق والباطل قال تعالى : ﴿ **إنما يستجيب الذين يسمعون** ﴾ ثم ينعى القرآن الكريم على الذين يهملون حواسهم قال تعالى : ﴿ **صم بكم عمى فهم لا يعقلون** ﴾ .

(٣) التزود من العلوم المختلفة التى تزكى العقل وترفع من مستواه بالحث على طلب العلم والتعليم وتكريم أهله[2] . قال تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾

أهداف التربية الإسلامية :

معنى الهدف: الهدف هو : الغاية التى يتصورها الإنسان ويضعها نصب عينيه وينظم سلوكه من أجل تحقيقها . مثال ذلك ، الطالب الذى يجهد نفسه فى المذاكرة طيلة العام ليحصل على مركز علمى ومرتبة علمية ومركز اجتماعى ... إلخ .

معنى الدافع : الدافع هو : المحرض العضوى أو النفسى الذى يبعث على السلوك أو يغذى القوى الباعثة عليه فى النفس والجسم ويحركها وينشطها

(١) سورة النحل : آية : ١٢٥ .

(٢) محمد المرصفى ، ليلى عطار . محاضرات فى التربية الإسلامية . مرجع سابق ص ص ٦١ — ٦٢ .

حتى يحقق غاية حيوية تهم كيان الكائن سواءً أدركها أو لم يدركها بعقله أو روحه .

هذا وكلما كان الهدف واضحاً ومحدداً ، كلما ساعد على ذلك على تحقيقه فى أسرع وقت وبأقل جهد . ومثال ذلك : لو أن إنساناً أمر أن يمشى فى طريق معين ، دون توضيح أى سبب لهذا المسير ، أو لماذا اختيار هذا الطريق دون غيره ، لصار متردداً وكان اندفاعه ضعيفاً ، بيد أنه لو قيل له مرةً أخرى : اسلك هذا الطريق ، وستجد فى نهايته بستاناً جميلاً ، له أصحاب كرام ، يدعون جميع الوافدين للغذاء عندهم ، وكان هذا الإنسان جائعاً ، لاندفع مسروراً مرتاح النفس ، راغباً ولقطع الطريق بقوة وعزم وبأقل وقت وجهد لأنه عرف الهدف(١) .

من هنا يتضح أن الهدف هو الذى يوجه النشاط الإنسانى ويدفع إلى الإنجاز ويساعد على النجاح .

وإذا كان هذا هو شأن الهدف على سبيل الإطلاق ، فما هو المقصود بالهدف التربوى ، وما مفهومه ؟

معنى الهدف التربوى: توجد عدة مفاهيم لتحديد الهدف التربوى منها :

* الهدف التربوى عبارة عن : « نتيجة نهائية لتعليم ناجح » أو هو : وصف للسلوك المتغير الذى يشير إلى أن التعلم قد أخذ مكانه فعلاً عند المتعلم .
* الهدف التربوى عبارة عن : « التغير المرغوب الذى تسعى العملية التربوية أو الجهد التربوى إلى تحقيقه ، سواء فى سلوك الفرد ، أو فى حياته الشخصية أو فى حياة المجتمع وفى البيئة التى يعيش فيها الفرد ، أو فى العملية التربوية نفسها ، أو فى عمل التعليم كنشاط أساسى ، وكمهنة من المهن الأساسية فى المجتمع .
* الهدف التربوى هو : « العمل المنظم ، بخطواته المتسلسلة والقائمة على دراسة الظروف المحيطة ، وعلى بصرٍ بالاحتمالات المختلفة أثناء التحرك نحو « توقعات » و « تطلعات » معينة وهذا المفهوم يعنى أن :

---
(١) المرجع السابق . ص ٦٣ .

ـــ الهدف لا ينفصل عن الخبرة الماضية للفرد والجماعة وعن الواقع الحسى ، لأنه ينبع من مشكلات الحياة وتفاعلاتها وصراعاتها .

ـــ الهدف دائماً مشروط بعوامل الزمان والمكان .

ـــ أن الهدف لكى يحقق وظيفته لابد أن يترجم فى وسائل معينة مناسْبة ، وبالتالى علاقات وتفاعلات تخلق موقعاً جديداً ، وخبرة جديدة تتفق والتوقعات والتطلعات المنشودة .

* الهدف التربوى يعنى : وجود عمل مرتب ومنظم قائم على استبصار سابق للنهاية فى ظل ظروف وإمكانيات موضوعية مصاحبة .

* الهدف التربوى يعنى : اتجاهات يبحث عنها المربون لتوجيه أولئك الذين يقعون تحت رعايتهم(١) .

يتضح من المفاهيم السابقة للهدف التربوى أنه متعدد ومتنوع إلا أنه بالرغم من هذا التنوع وهذا التعدد ، فلا مراء أن هناك إجماعاً على أهمية الهدف التربوى ، وعلى تحديده ، لأن الإخفاق فى ذلك ينتج عنه مضاعفات عميقة الأثر ، واضطرابات وانقسامات داخل المجتمع ، الأمر الذى يبين أهمية الدقة فى اختيار الأهداف التربوية وتحديدها .

وفى ضوء هذا يمكن القول أن :

ـــ الهدف عبارة عن توقع أو تطلع أو اتجاه ينصب العمل على تحقيقه .

ـــ يسهم تحديد الهدف فى تحديد شكل الواقع والمستقبل والتغيرات المطلوبة .

ـــ يختلف الهدف عن النتيجة ؛ حيث أن الهدف طموح ، أما النتيجة فهى واقع قد يحقق الطموح وقد لا يحققه(٢) .

---

(١) على خليل أبو العينين . أهداف التربية الإسلامية . مصادر اشتقاقها ومعايير صياغتها للمجتمع الإسلامى المعاصر . ط ١ ـــ ١٤٠٨ هـ ـــ ١٩٨٧ م مكتبة إبراهيم الحلبى . المدينة المنورة . ص ١١ ـــ ١٢ .

(٢) المرجع السابق . ص ١٢ .

وظيفة الأهداف التربوية : تتمثل هذه الوظائف فى أن الأهداف :

* تشكل الأساس فى بناء العملية التربوية والتخطيط لها .
* تشكل المنطلق لربط عناصر العملية التربوية ببعضها .
* تشكل المنظم الأساسى فى انتقاء وتنظيم القوى التربوية .
* تقوم بدور الموجه لجهود العاملين فى المجال والذين يتولون مهام تقديم المؤثرات التربوية .
* توجه عملية الإنشاء والتجهيزات والإنفاق على العملية التربوية .
* تضمن وتوجه تقديم الحوافز والمثيرات التى تقوم بدورها فى بعث الحيوية والنشاط لدى المتعلم .
* تساعد فى اختيار الأفراد المشتركين فى النشاط التربوى ، والذين بإمكانياتهم ترجمة الهدف ونقله من حيز الإمكانية إلى حيز الواقع والتنفيذ .
* تحتوى على معايير يُستَنَدُ إليها فى تقويم سير نمو الطلاب فى طريقه السليم .
* تبرز مجموعة القيم المتكاملة ذات العائد الاجتماعى المثمر ، وتتيح للنشء فرصة الموازنة والاختيار منها . وهذا يعنى أنها توجه اهتمامات المتعلمين نحو النضج الاجتماعى والفردى .
* توجه فى اختيار المنهج والأساليب التى تضمن فعالية تأثير القوى التربوية وتكفل تناسقها مع كافة المؤثرات التربوية التى يعيشها المتعلم .

هذا وتوجد عدة صفات وسمات تحدد طبيعة الهدف التربوى ومنها :

١ ــ **الواقعية** : بمعنى أنها تُترجم عن واقع ، من طبيعة الإنسان والعلاقات الاجتماعية ، كما تنبثق من معتقدات وتصورات المجتمع .

٢ ــ **الوضوح والدقة** : بمعنى أنه يمكن ترجمتها إلى سلوك واضح ، ومعنى هذا أنها تكون دقيقة ومحددة تحديداً لا يتيح الفرصة للبس أو غموض .

٣ ــ **الشمول** : وهذا يعنى أنها ــ الأهداف ــ تشمل جوانب المتعلم المختلفة وفى توازن دقيق .

٤ ــ **التنظيم** : أى أن الأهداف ترتب بطريقة محددة ومنظمة عن وعى وجهد مبذول مقصود من أجل تخطيط أفضل .

٥ ــ **استشفاف** : أى أن الأهداف التربوية ذات كفاءة استشفافية ، فهى تعبر

عن الرؤية المسبقة لغايات العمل التربوى المحددة والمحتملة التى يمكن الاستشفاف بها قبل وقوعها (١) .

مصادر الأهداف التربوية الإسلامية :

يوجد اتجاهان لانتقاء واشتقاق الأهداف :

(١) الانتقاء والاشتقاق للأهداف على نمط الاهتمام بمتطلبات الواقع الاجتماعى مراعيا العنصر البشرى الذى يتضمنه ؛ ولذلك تتأرجح الاهتمامات بين تدرج فى المستويات التربوية التى تقدم للنشء ونوعية تلك المستويات ، فيمضى العمل التربوى من حيز تقديم حد ادنى من الثقافة يُصْطلح على مداها بالنسبة لكافة المواطنين ، ثم يزداد هذا الحد بالنسبة لفئات منتخبة تبعا لمعايير يتدخل فيها طبيعة التركيب الاجتماعى السائد ، ونظام الحكم المسيطر ، والامكانيات الاقتصادية المتوفرة .

(٢) ويعمل على انتقاء الأهداف واشتقاقها استناداً إلى رفض وعدم اقتناع بصلاحية الظروف الاجتماعية القائمة جملة وتفصيلا . وهذا يعنى أن هذا الاتجاه يتحدد من خلاله أسلوب اشتقاق الأهداف التربوية المبنى على ضرورة تحقيق الإصلاح الاجتماعى وإعادة بناء المجتمع من جديد .

والواقع أن كلا الاتجاهين لابد وأن يتكاملا فى طريقة اشتقاق الأهداف التربوية ؛ فالثقافة السائدة بأطرها تحتاج إلى استمرارية وهذا مايؤكده الاتجاه الأول ، وهى فى نفس الوقت تحتاج إلى تجديدات وإصلاحات وهذا ما يؤكده الاتجاه الثانى . ولذا فمن الأهمية بمكان تكامل الاتجاهين معاً (٢) .

هذا وتوجد مصادر متعددة لاشتقاق الأهداف سنتحدث عن خمسٍ منها فى إطار المنهج الإسلامى :

أولا : القرآن الكريم : وهو اللفظ المنزل على النبى ﷺ المنقول إلينا بين دفتى المصحف تواترا .

ويعتبر القرآن الكريم من المصادر الأساسية للأهداف التربوية الإسلامية

(١) المرجع السابق . ص ص ١٣ — ١٦ .   (٢) المرجع السابق . ص ص ٢٠ — ٢١ .

ذلك أنه يتضمن من الخصائص مايجعله مصدراً للقيم الإسلامية . قال تعالى ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة** ﴾ وقال جل شأنه ﴿ **مافرطنا فى الكتاب من شيء** ﴾ .

وعلى وجه العموم فلكى يمكن اشتقاق أهداف تربوية متكاملة من القرآن الكريم ، فلابد من فهم ما فى القرآن الكريم وفهم معانيه ؛ لأنه كلمة الله وهى حقيقة الحقائق ، النظرية والتطبيقية ، وهى قيمة القيم ، منها تجيء كل القيم ، والتصورات وفيها يندمج الفكر والسلوك فى منظومة واحدة .

ثانيا: السنة المطهرة : السنة لغة : الطريقة . واصطلاحاً : ما أثر عن النبى ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير أو صفةٍ خِلْقيةٍ أو خلقية أو سيرة ، سواء أكان قبل البعثة أم بعدها... »(١) .

هذا وتكمن أهم المبررات الأساسية فى اعتبار السنة المطهرة مصدرا للأهداف التربوية فى :

* بعث رسول الله ﷺ مبلغاً لكل مافى الرسالة ، وما تحمل من نظرات متكاملة للحياة والعقيدة والكون والإنسان والعبادة والسلوك العام .

من هنا فالرسالة الإسلامية قائمة على العلم والتعليم والفهم والإدراك . وقد أدرك هذا رسول الله ﷺ فى مكة وفى المدينة ، وكان اهتمامه بالعلم والتعليم ، فكان يقوم بإعداد المعلمين وإرسالهم كبعثات تعليمية لتعليم الناس أمور الإسلام . هذا وقد كان للرسول صلوات الله وتسليماته عليه سياسة تعليمية ومؤسسات تقوم على تحقيق تلك الأهداف كالمساجد ودور القراء وغير ذلك ، وكان من نتاجها متعلمين ، يقرأون ويكتبون ويعلمون الناس القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ ، كما كانوا هم مادة النهضة الإسلامية .

* اهتم الرسول ﷺ بالجوانب التطبيقية كما اهتم بالجوانب النظرية ، ومن ثم احتوت السنة على مبادىء تربوية وتوجيهات لكافة شئون الحياة الإسلامية ، كونت الأطر العامة للحياة الإسلامية ، فضلا عن

(١) المرجع السابق . ص ٢٣ ، ٢٦ .

تحديداتها للسلوك اليومى للمسلم ، وفيها الكثير من القيم التى تصلح أساساً لاشتقاق الأهداف التربوية ، فضلا عن أن الرسول ﷺ يعتبر القدوة للمسلم وللأمة الإسلامية .

* تضمنت السنة المطهرة الكثير من القيم والتصورات الأساسية اللازمة لحياة إنسانية وإجتماعية سليمة ، يمكن أن تصبح مصدراً من مصادر اشتقاق الأهداف ومنها : القيم التربوية ــ التربية الجسدية ــ التربية العقدية ــ التربية العقلية ــ التربية الاجتماعية ــ التربية الخلقية ــ التربية الجمالية ــ التربية العاطفية والوجدانية ... إلخ .

ثالثا : التراث الثقافى : هناك الكثير والجيد من التراث الذى يمكن أن يسهم فى اشتقاق الأهداف التربوية ومنها : توفير الجو النفسى من أجل التحرر من التبعية ، وتجاوز تحديات العصر ، ودفع التربية فى طريق الحياة من جديد .

ويهمنا الاتجاه إلى أشكال التراث وأفكاره فى كافة تجلياته وعبر العلوم المختلفة ومن أهمها :

* التفاسير وما تتضمنه من تطور فى فهم النص . وهذا يحتاج إلى دراسات واسعة لاستلهام ماجاء فى هذه التفاسير على اختلاف مدارسها .

* شروح الأحاديث وما تتضمنه من أفكار وآراء كثيرة وقيم أكدها شراح الصحاح وأفاضوا فيها ، وهذه ذخيرة يمكن الرجوع إليها لاكتشاف القيم والأهداف التربوية .

* الفقه الإسلامى ، فقد عالج كثيرا من مسائل التربية وأحكام التعليم وحوى الفقه الإسلامى الكثير من التنظيمات وأساليب التفكير ومناهجه .

* الأدب وكتبه ، والتى حوت الكثير من القيم ، والكثير من مبادىء التعلم وأهدافه ، والقيم الاجتماعية والخلقية .

* كتب الطبقات ، وهى تتصل بتراجم العلماء ، وهى كثيرة وافرة ، وفيها

الكثير من أدب العلم والعلماء والمتعلمين وأدب الطلب وغير ذلك من ميادين التربية .

كتب الفكر الاجتماعى ، كما يمثلها الماوردى وابن مسكويه وابن خلدون والجاحظ والتوحيدى ، وابن الأزرق ... وغيرهم ممن يمكن الاستفادة من آرائهم التى تفيد فى اشتقاق الأهداف

هذا وتجدر الإشارة إلى أن التراث وما يحتويه ليس متطابقا فى جملته مع منهج الإسلام من القرآن والسنة ، الأمر الذى يحتم ضرورة الفهم الجيد للغة العربية ومعانيها ودلالاتها ، والإدراك الكامل لتطورات وتغيرات المجتمع الإسلامى والفكر الإسلامى .

رابعاً : طبيعة المجتمع : المجتمع الإسلامى له مميزات وخصائص ينفرد بها ، كما أن له ثقافته التى تميزه عن سواه ومنها :

* أنه مجتمع يعلى من قدر القيم الروحية وهى أساس بنائه ، كما أن أساس هذا المجتمع قيم نابعة من الإسلام ، وهى التى صنعته وأضفت عليه الفعالية الحضارية والتاريخية ، ومازالت قادرة على إثراء هذا المجتمع ودفعه نحو التقدم والرقى .

وقد قامت هذه القيم على أساس الإيمان بالله وحده ، وكانت كل التنظيمات الاجتماعية الإسلامية نابعة من هذا الإيمان ، فشكلت أطره الثقافية ، بحيث غدا مجتمعا ذو ثقافة متميزة تقوم على الالتزام بالمسئولية والأخلاق ، ومسئولية هذا المجتمع عن أمانة الاستخلاف فى الأرض .

* أنه مجتمع يحترم كرامة الإنسان ، فهو مجتمع يحترم الإنسان ويعطيه حقه من الكرامة والمساواة التى تعد من أهم المبادىء التى ينبنى عليها هذا المجتمع وهذه المساواة فى أصل الخلقه وفى العبودية لله والأصل والنشأة والمسئولية أمام الله عن العمل .

وهذا فى الأصل يعود إلى أن العقيدة الإسلامية قد حررت الإنسان والمجتمع من الخوف ومن سلطان الخرافات والأساطير فحررت المسلم نفسياً وسياسياً وخلقياً واجتماعياً . وهذه الحرية والمساواة يترتب

عليها المسئولية الفردية والجماعية ، ونظم الحكم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ورعاية حق الله وحق الناس .

* أنه مجتمع عادل ، حيث أن العدل هو الأساس للمجتمع الإسلامى ، فهو مطالب بأن يقيم العدل ويحافظ عليه ويلتزم به فى كل صورة مسئولية وشهادة وحكماً بين الناس . قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾(١) .

* أنه مجتمع متكافل ، وهذا التكافل نابع من المساواة والحرية والمسئولية والعدل ، ويحتل التكافل فى المجتمع الإسلامى منزلةً رفيعه سواء كان أدبيا أو سياسياً أو دفاعياً أو جنائياً أو أخلاقياً أو اقتصادياً ... الخ

* أنه مجتمع له الأصالة والذاتية الحضارية ، فقد واجه كل التحديات وتصدى لكل المعوقات التى تعرض لها عبر الزمن .

إنه مجتمع له تنظيماته السياسية والاقتصادية والأسرية ، فهو يبطل الاستغلال ويقدس العمل ويأمر بتوزيع المال ويعتنى بالفقراء وهذه اللغة هى أسس مجتمع مسلم يقوم على التنظيمات الاجتماعية السليمة ويتحقق فيه منطق الكفاية والعدل(٢) .

خامساً : **خصائص المتعلم وسماته** : من العوامل الأساسية التى توجه وتحدد الأهداف التربوية وخصائص المتعلم وطبيعته . ذلك أن تصور وتحديد تلك الأهداف يساعد على تحديد نماذج النشاط الموجه والمشكِّلة للحياة الإنسانية ، وذلك تبعاً لأهميتها بالنسبة للإنسان فى وجوده الفردى والاجتماعى .

من هنا فإن تحديد طبيعة المتعلم أمر مهم خصوصاً لمن يخططون للأهداف التربوية الإسلامية وعليهم أن يستفيدوا من أمرين :

---

(١) سورة المائدة آية ١٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ص ٣٨ — ٤١ .

ـــ الأول : طبيعة الإنسان كما وردت فى القرآن الكريم والسنة وما وافقهما فى اجتهادات العلماء والمفكرين .

ـــ الثانى : طبيعة النمو والتعلم والتى توصلت إليها الدرسات الحديثة ، وفهم نمو الأفراد فهماً علمياً سليماً ، كى يستطيع صياغة الهدف التربوى صياغة جيدة ، يمكن تحقيقها تحقيقاً سليماً ويتوافق مع طبيعة المتعلم وخصائصه(١) .

مستويات الأهداف التربوية :

* هناك ثلاث مستويات للأهداف : ـــ

١ ـــ أهداف على مستوى النظام التربوى بعمومه ، وهى مشتقة من طبيعة المجتمع وعقائده وتصوراته وقيمه ، وتعتبر هذه الأهداف أهدافا عامة . ويعبر عنها بأنها أهداف غائية ، أى لا تعلوها أهداف أخرى . والأهداف العامة تتسم بالعمومية والتجريد ، وتشتق من الأهداف الاجتماعية الواسعة ، وتحاول ترجمة أهداف المجتمع وإطار حياته ونظرته إلى الكون والمجتمع إلى واقع ، فعقيدة المجتمع هى التى تشكل الأهداف الغائية العليا وتتصل بكافة تنظيماته وواقعه وطموحاته ومثالياته .

٢ ـــ أهداف خاصة : وهى التى تتصل بالمنهج أو المرحلة وهى مشتقة من النظام التربوى ، ومن طبيعة المادة أو المرحلة الدراسية وتتصف بالخصوصية والتفصيل ، وإن اختلف فى مدى خصوصيتها وتفصيلها تبعاً لمدى قربها أو بعدها عن ما يتعلمه المتعلم .

وهذا المستوى يفسر الأهداف الغائية بصورة تكون أكثر واقعية وأقرب فى المواقف العملية ، وأكثر التصاقاً بحاجات المتعلمين ، أو أكثر قربا منها .

٣ ـــ أهداف على مستوى العملية التعليمية وهى الأهداف الخاصة بالوحدة الدراسية ، والمرتبطة بالنشاط والدرس .

والأهداف التربوية أشمل من الأهداف التعليمية حيث أن الأولى تنصب على أهداف التربية ومايرتبط بها من المجتمع بصفة عامة ، بينما الثانية فتختص بما يدور فى العملية التعليمية وما ينبغى تحقيقه بالنسبة للتعليم المدرسى أو النظامى كأحد وسائط التربية (٢) .

(١) المرجع السابق ص ص ٣٣ ـــ ٣٤ .

(٢) مرجع سابق ص ص ١٧ ـــ ١٨ .

التربية الإسلامية والطبيعة الإنسانية :

يمكن تحديد بعض ملامح الطبيعة الإنسانية فى :ـــ

* الانسان خليفة الله فى الأرض ، يؤدى رسالة معينة ومعنى هذا أن سلوك المسلم هادف يسعى لتحقيق الأهداف والأغراض التى حددها الإسلام .

* قابلية الإنسان للنمو بكافة قواه وقدرته مع تأثير الوراثة والعوامل الوراثية فيه قال تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾[١] .

* توجد فروق فردية من حيث الاستعدادات والقدرات والاهتمامات وهى حقيقة قائمة تلعب فى المؤثرات المختلفة دوراً هاماً فالبيئة الاجتماعية والمستوى العلمى والثقافى والاقتصادى والظروف المحيطة بالفرد ونوع الدعاية التى يتلقاها تبذر بهذه الفروق أو تقلل منها .

* تلعب البيئة والوراثة الأثر الكبير فى تشكيل شخصية الإنسان ، وتشير الوراثة إلى الخصائص والاستعدادات الفطرية لدى الكائن البشرى ، أما البيئة فتشير إلى مجموعة العوامل الخارجية التى تؤثر فى الكائن البشرى منذ بداية تكوينه وهو جنين فى بطن أمه إلى أن يولد وينمو .

* السلوك الإنسانى يتسم بالوحدة والكلية وهو قابل للتعديل تحت شروط معينة بينها القرآن وبينتها السنة ، على أن أساليب هذا التعديل تعتمد على النقد الذاتى والضبط الذاتى والتقويم الذاتى[٢] .

الإنسان خليفة الله فى الأرض :

المراد بالخلافة : إجراء أحكام الله وتنفيذ أوامره بين الناس وسياسة الخلق ، إلا أنه لا حاجة به تعالى إلى ذلك بل لتصور مدى استعداد المستخلف عليهم . والخلافة بهذه الصفة النافذة بأمر الله ومشيئته تختص بواجب عند الإنسان : مسئولياته وواجباته نحو ربه وواجباته ومسئولياته عن علاقته بالعالم وعلى الفرد المسلم أن يوازن بين علاقته بالله وعلاقته بالعالم .

---

(١) سورة النحل آية ٧٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٤ ـــ ٣٦ .

أما مفهوم الخليفة فأنه من يخلف وينوب عن الله والمراد به آدم عليه السلام وبنوه ، حيث أن الإنسان قد زوده الله فى الخصائص ووهبه من القدرات والاستعدادات مايستطيع به أن يكون محور الحياة فى هذا الكون وموضع التكريم الربانى والعناية الإلـهٰية قال تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون** ﴾[1] .

هذا ولا شك أن طبيعة الإنسان هى التى جعلته مؤهلا لحمل تبعات الخلافة وأمانة التكليف وحرية الاختيار ، وقد خلق الله الإنسان جسماً كثيفاً وروحاً شفافاً جسماً يشده إلى الأرض ، وروحاً يتطلع بها إلى السماء . جسماً له مطالب أشبه بمطالب الحيوان ، وروحاً له أشواق كأشواق الملائكة ، وهذه الطبيعة المزدوجة هى الفطرة التى فطره الله عليها وأهله بها ليكون خليفة فى الأرض منذ أن خلق الله آدم خلقاً جمع بين قبطه الطين ونفخ الروح .

هذا وقد زود الله الإنسان بصفات الفهم الجيد والذكاء وقوة التخيل والفكر والرؤية والتأمل والاعتبار والنظر والحفظ والتذكر وكلها صفات جعلت الإنسان يقف على قمة مخلوقات الله وبهذه الصفات تأهل الإنسان للخلافة عن الله فى الأرض ، فاستواء الجسم وفصاحة اللسان والسلوك الصادر عن الإرادة الواعية والفكر الاستدلالى والقدرة على استعمال اللغة كأداة للتفكير كل هذه ميزت الإنسان عن غيره من الكائنات قال تعالى : ﴿ **الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان** ﴾[2] .

كما أن قدرة الإنسان على التفكير والتعلم تكون بما زود الله به الإنسان فى العقل الذى يدرك به أسرار الكون ويميز به بين الخير والشر والتقوى والفجور .

هذا ولا يخفى أن استخلاف الإنسان لا يخلو من الابتلاء تبعية التكليف وحرية الإرادة ومسئولية الاختيار وتلك هى الأمانة قال تعالى : ﴿ **أنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان** ﴾[3]

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) سورة الرحمن الآيات ١ — ٤ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٧٢ .

وقال تعالى عن ذلك الابتلاء بمعاناة الصراع بين نوازع الخير والشر فيما استخلف فيه الإنسان ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ .

وهذا الابتلاء يتبعه التكليف ولابد له من أن يقوم على مبدأ الحرية ، فالحرية هى الأساس الذى عليه يقوم حمل الإنسان لأمانته وأهليته للخلافة ، ولهذه الحرية يتحمل الإنسان مسئولية اختياره لدينه وعقيدته دون إكراه أو قصر ، كما يتحمل ماينتج عن ذلك من أثار قال تعالى : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا** ﴾ .

هذا ولن تكون الهداية حقيقية مالم يزود الإنسان فى طبيعته بقوة الإدراك والفهم والوعى وقابليته للتعلم واكتسابه للمعارف والمعانى والأفكار والاتجاهات . من هنا فقد هيأ الله فطرة الإنسان للتعلم وجعل مناط استحقاقه للخلافة هو العلم قال تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون** ﴾(١) .

والإنسان فى قابليته للتعلم يصير قادراً على عمارة الأرض ودفع عجلة الحياة نحو التقدم كما يصير قادراً على القيام بأعباء الخلافة فى الأرض .

مكونات الإنسان « الجسم والعقل والروح » فى إطار نظرة كلية للإنسان :

نظر الإسلام إلى الذات الإنسانية على أنها كل متكامل ، لا تتكون من جسم أضيف إليه عقل وأنما هو كيان منفرد له خصائصه التى تميزه عن بقية الكائنات ، فهو يمثل وحدة حيوية متكاملة الجوانب متداخلة العناصر متوازنة البنيان .

والإسلام فى نظرته إلى الطبيعة الإنسانية يختلف عن نظرة الفلاسفة والمفكرين الذين نظروا إلى الطبيعة الإنسانية على أنها مركبة من عنصرين مختلفين هما :ـ المادة والروح أو الجسم والعقل .

هذا وسوف نتحدث عن كل من التربية الجسمية والتربية العقلية والتربية

---

(١) سورة البقرة الآيات ٣١ ـ ٣٣ .

الروحية إلا أن حديثنا سيكون فى أطار الفطرة الشاملة المتكاملة للطبيعة الإنسانية .

(١) **التربية الجسمية**: ليس المقصود بالتربية الجسمية العضلات والحواس فقط وأنما المقصود الطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم والمتمثلة فى مشاعر النفس ، والتى تمثل طاقة الدوافع الفطرية والانفعالات وبالجملة طاقة الحياة الحسية على أوسع نطاق .

ونحن لا يمكننا أن نفصل بين النفس والجسم ، ولا نستطيع أن نتحدث عن النشاط الجسمى دون الدخول فى نطاق النفس (السمع والبصر والذوق والشم واللمس) فهذه كلها حواس جسمية إلا أنها لا تؤدى وظيفتها منفصلة عن الكيان النفسى كله .

والإسلام فى تربيته للجسم يراعى أمرين : يراعى الجسم من حيث هو جسم ، ليصل منه إلى الغاية النفسية المرتبطة به . فحين يقول الرسول الكريم لن لبدنك عليك حق فهو يدعو إلى هذه العناية الشاملة للجسم كله ليأخذ الإنسان بنصيب فى المتاع الحسى الطيب الحلال قال تعالى : ﴿ **ولاتنس نصيبك من الدنيا** ﴾ [١] وقال تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾ [٢] وهذا يعنى أن الغاية النفسية تقوم أصلاً على الأساس البدنى ، حتى يمكن توفير الطاقة الحيوية اللازمة لتحقيق أهداف الحياة ، وهى أهداف تشمل كل كيان الإنسان .

وتوجيهات الإسلام للتربية البدنية سواء منها الرماية أو الفروسية أو الرياضة البدنية بوجه عام تقوم كلها على أنها جزء من منهج التربية الإسلامية . ويؤيد هذا التوجه أحاديث الرسول ﷺ التى يقصد من وراءها تقوية الجسم وتحمل المشقة وبذل الجهد والأخذ بنصيب من الحياة ؛ حيث أن الجسم الهزيل المريض لا يأخذ نصيبه الحق من المتاع ، إضافه إلى أنه لا يوصل شحنة الحياة إلى النفس توصيلاًصحيحاً .

والإسلام وهو يربى الجسم يحرص على تربية الطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم والمتمثلة فى مشاعر النفس . ولذلك يهتم الإسلام بتربية النفس والعقل . وحتى حينما

(١) سورة القصص آية ٧٧ .   (٢) سورة الأعراف آية ٣٢ .

يعالج الإسلام التربية الجسدية من الاغتسال والوضوء فإنه يهدف إلى الطهارة الروحية قال تعالى ﴿ **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نساءكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾[2] .

وليس بعد ذلك من دلالة فى الاعتراف بالطاقة الحيوية نظيفة محببة معروضة فى موضع النور .

والإسلام لا يحتقر الجسم ولا يستنكره ولا يستقذره ، وأبلغ دليل على ذلك أن العبادات الإسلامية تشرك الجسم فى العبادة ولا تسقطه من الحساب . فالصلاة نلمح فيها الوضوء ومع أنه عملية جسمية إلا أن له معانى روحية يقصد بها تطهير البدن قبل الدخول فى الصلاة . هذا كما أن الصيام عبادة نفسية جسمية معاً . وكذلك العبادات بمعناها الواسع ، عبادة العمل .... إنها مشاركة جسمية فى التوجه إلى الله[3] .

٢ ـــ التربية العقلية :

الكائن الإنسانى وحدة مترابطة ممتزجة الأجزاء . لا ينفصل منه جسم عن عقل وعن روح فبينها جميعاً امتزاج وترابط . وهذه هى القاعدة التى تبنى عليها التربية الإسلامية ، والتنظيم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والخلقى والفكرى وهذا كله يتصل بالتربية العقلية والروحية والجسدية .

والعقل البشرى طاقة من أكبر الطاقات ونعمة من أكبر النعم قال تعالى : ﴿ **قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون** ﴾[3] والفؤاد يستخدم فى القرآن بمعنى العقل أو **القوة الواعية فى** الإنسان أو القوة المدركة على وجه العموم .

هذا ويبدأ الإسلام التربية العقلية بتحديد النظر العقلى **فيصون الطاقة العقلية** أن تتبدد وراء الغيبيات التى لا سبيل للعقل البشرى **أن يحكم فيها . والإسلام يعطى**

---

(١) سورة البقرة اية ١٧٨ .

(٢) محمد قطب . منهج التربية الإسلامية . جـ ١ . مرجع سابق . ص ص ١٠٤ ـــ ١٠٧ .

(٣) سورة الملك اية ٢٣ .

الإنسان نصيبه من هذه الغيبيات ، بالقدر الذى يلبى ميله للمجهول ، ولكنه يَكِلُ أمر ذلك إلى الروح ، فهى القادرة على ذلك المزودة بوسائل الوصول . إن العقل وسيلته إلى الله وإلى معرفة الحق هى تدبر الظاهر بالحسي والمدرك بالعقل ، ومن ثم يحدد الإسلام مجاله بهذا النطاق . ثم بعد ذلك يأخذ منهج الإسلام فى تدريب الطاقة العقلية على طريقة الاستدلال المثمر والتعرف على الحقيقة فيتخذ إلى ذلك وسيلتين :ـــ

الوسيلة الأولى : وتتضمن المنهج الصحيح للنظر العاقل .

الوسيلة الثانية : وتتضمن تدبر نواميس الكون وتأمل مافيها من دقة وارتباط .

والوسيلة الأولى يصل إليها الفرد بطائفة من التوجيهات والتدريبات فهو أولاً يبدأ بتفريغ العقل من كل المقررات السابقة التى لم تقــم على يقين وإنما قامت على مجرد التقليد أو الظن . وينبغى على المقلدين الذين يقولون ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون** ﴾(١) . ثم بعد ذلك يأمر المسلم بالتثبت من كل أمر قبل الاعتقاد به واقتفائه : ﴿ **ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾(٢) .

وهى مسئولية ضخمة وتبدو ضخامتها فى إفراد السمع والبصر والفؤاد فى مبدأ الأمر ليكون كل منها مسئولاً على حدة ثم جمعها كلها بعد ذلك وإشراكها فى المسئولية ، بهذا الجمــع والتوكيد : ﴿ كل أولئك ﴾ وذلك كله ليحس الإنسان بعظم التبعة وهو يقدم على الأمر ، فلا يأخذ الأمور باستخفاف ولا يأخذها بلا تثبت وهو عنها مسئول .

والوسيلة الثانية وهى تدبر نواميس الكون تطبع العقل بطابع من الدقة والتنظيم . إن نواميس الكون تجرى فى دقة عجيبة ونظام لا يختل وفوق مايوحية ذلك للقلب البشرى من تقوى الله الصانع المدبر والتوجه إليه فى كل أمر ، فإنه يعود العقل على دقة النظر وانضباط الأحكام .

من هنا فالإسلام يوجه الطاقة العقلية أول مايوجهها إلى التأمل فى حكمه الله وتدبره . وهو أمر أقرب مايكون إلى مملكة الروح . والله عز وجل هو الخالق المدبر

(١) سورة الزخرف آية ٢٣ . (٢) سورة الإسراء آية ٣٦ .

الذى خلق السموات والأرض بالحق ويدبرها بالحق وذلك هو موضع التأمل قال تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾[١] .

فأولو الألباب ﴿ يتفكرون ﴾يستخدمون قواهم الواعية فى تدبر آيات الله فى الكون وتأملها . ولكنهم لا يتفكرون فكراً مجرداً ذاهلاً عن الواقع المحسوس كما لا يتفكرون بمعزل عن الله ، فيضلوا إنما يتفكرون وهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم . ومن ثم يتصل الفكر عندهم بالله ويتصل « العلم » كذلك بالله .

وهم لا يتفكرون فى الله وآياته بلا هدف وأنهم هم يصلون إلى هدفهم سريعاً ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلاً** ﴾ فيعرفون لتوّهمْ أنه الحق[٢] :

(٣) التربية الروحية :

الروح ..... هى تلك الطاقة المجهولة التى لا نعرف كنهها ولا طريقة عملها ... هى وسيلتنا للاتصال بالله .

والروح مهتدية إلى الله بفطرتها . إنها من روح الله التى أودعها قبضة الطين : قال تعالى : ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[٣] .

ومن ثم فهى بذاتها تهتدى إلى خالقها ، وتتصل به عن طريقها : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى . شهدنا** ﴾[٤] والروح تهتدى إلى الله كما يهتدى كل شىء فى خلق الله بفطرته دون كدٍ ولا تعب ولا جهد فى الاهتداء قال تعالى : ﴿ **قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾[٥] وكل مافى الأمر أن الله قد كرم هذا المخلوق البشرى : قال تعالى ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[٦].

---

(١) سورة آل عمران آيات ١٩٠ ــ ١٩١ .

(٢) محمد قطب . منهج التربية الإسلامية . جـ ١ ص ص ٧٥ ــ ٧٩ .

(٣) سورة الحجر آية ٢٩ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٥) سورة طه آية ٥٠ .

(٦) سورة الإسراء آية ٧٠ .

ويهمنا هنا أن نؤكد أهمية العقيدة فى مساندة الفطرة ، وتوجيهها الوجهة الصحيحة ؛ لأن العقيدة عليها أن تساعد الفطرة فى الاهتداء إلى الله ... الاهتداء الذى هو كامن فى كيانها .

والإسلام يعنى عناية خاصة بالروح إنها فى نظره مركز الكيان البشرى ، إنها القاعدة المهيمنة على حياة الإنسان ، إنها الموجه إلى النور ، ويكفيها أنها صلة الإنسان بالله .

والإسلام فى عنايته بتربية الروح هو دين الفطرة ، والطاقة الروحية فى الإنسان هى أكبر طاقاته وأشدها اتصالاً بحقائق الوجود فبينما طاقة الجسم محدودة بكيانه المادى وما تدركه الحواس كما أن طاقة العقل محدودة بما يعقل محدودة بالزمان والمكان بالبدء والنهاية محكومة بالفناء ، بينما الحال كذلك بالنسبة إلى طاقة الجسم وطاقة العقل فإننا نجد أن طاقة الروح فى كيان الإنسان هى التى لا تعرف الحدود والقيود ، لا تعرف الزمان أو المكان ، لا تعرف البدء أو النهاية ... هى وحدها التى تملك الاتصال بالخلود الأبدى والوجود الأزلى .... تملك الاتصال بالله ، كما أنها هى التى تملك الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان .

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا ماهى طريقة الإسلام فى تربية الروح ؟ لا شك أن الإسلام وهو يربى الروح يستند إلى عقد الصلة الدائمة بينها وبين الله فى كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور فهو فى ناحية يثير حساسية القلب بيد الله المبدعة فى صفحة الكون لتحس دائماً بوجود الله ، وقدرته المطلقة التى ليست لها حدود . ومن ناحية يثير حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه فهو مع الإنسان أينما كان وهو مطلع على فؤاده عالماً بكل أسراره . ومن ناحية ثالثة يثير فى القلب وجدان التقوى والخشية الدائمة لله ومراقبته فى كل عمل وكل فكرة وكل شعور ومن ناحية رابعة يثير فيه الحب لله والتطلع الدائم إلى رضاه . ومن ناحية خامسة يبعث فيه الطمأنينة إلى الله فى السراء والضراء ، وتقبل قدره بالتسليم والرضاء والهدف فى النهاية واحد هو وصل القلب البشرى بالله(١) .

وعلى وجه العموم فهناك من الآيات القرآنية الكثير الغزير الذى يوجه القلب

---

(١) المرجع السابق ص ص ٤٠ ـــ ٤٤ .

بهذه الحقيقة الضخمة فى بنية الكون وفى بنية النفس . إن لله وحده هو الخالق . والله وحده هو المدبر . والله وحده هو الذى يصرف الأمور ولا قوة سوى قوته . ولا تدبير سوى تدبيره . وكل من عداه مخلوقات هزيلة ضائعة فانية لا تملك بنفسها شيئاً فضلاً على أن تملك للآخرين . فالنفع والضر بيده وحده ، لاينفع أحداً إلا بإذنه ولا يضر شيئاً شىء إلا بإذنه الرزق بيده والموت والحياة بيده والبعث والجزاء بيده قال تعالى :

﴿ **بيده الملك وهو على كل شىء قدير** ﴾(1).

ومن هنا فإن القلب إذا توجه هذه التوجهات كلها واهتز من أعماقه فإنه ينفعل بها انفعالاً حياً متجدداً مضطرداً لا ينقطع ولا يفطر ... وقد انعقدت بين الله وبين القلب البشرى صلة لاتنقطع فى النهار أو الليل لا تنقطع فى عمل أو شعور أو فكر لاتنقطع فى خلوة ولا صحبة لاتنقطع فى سر ولا جهر لاتنقطع مادامت الحياة ويتصل القلب بالله صلات شتى : يتصل به خشوعاً وتقوى . ويتصل به مراقبة له فى كل أمر من أمور الحياة . ويتصل به حباً وتطلعاً ويتصل به اطمئناناً إلى قدره وتسليماً بما يرضاه .

ومرة ثانية نلمح أن القرآن مملوء بالآيات الكثيرة التى لايملك الإنسان نفسه أمامها إلا أن يحب الله حتى وهو يخشاه ويخافه . وهذا يتم فى ظل العقيدة حين يتطلع القلب إلى الله بحب دافق وشوق دائم للقياه وهذا لايتم بعمل واحد أو كلمة واحدة أو شعور واحد أو لمسة واحدة إنما يتم بمذيج من الأعمال والأقوال والمشاعر واللمسات .... وكلها فى النهاية تحدث هذا الحب المتدفق الفياض . الحياة الدائمة مع الله فى صفحة الكون وباطن النفس . التطلع الدائم إلى الله ... فى السموات والأرض ... وفى الظاهر والباطن ... فى السر والجهر .... فى المعلوم والمجهول .... المراقبة الدائمة لله فى كل عمل وكل فكرة وكل شعور ... الإحساس الدائم بالله فى كل لحظة .... المصاحبة الدائمة لله فى كل أمر .... الصلاة والعبادة .... قراءة القرآن .... ومئات غيرها من المشاعر الخفية واللمسات اللطيفة . وفى النهاية يتدفق هذا الحب .... أعمق من أن يصفه اللفظ ، وألطف من أن يمسكه التعبير ، سارياً فى النفس ، مشعاً فى الكون لا تمسكه الألفاظ . ولكنه على خفائه ذلك قوى جاهر مبين ! يعلمه صاحبه ، ويحسه فى أعماقه ، ولا يحتاج أن يعبر عنه بلفظ ، فهو ممتلىء

---

(1) سورة الملك آية ١ .

به لايحس الفراغ الذى يُحْوِجُ للتعبير .

لاشك أن ذلك الحب هو قمة العبادة ، هو الكفيل بطاعة الله طاعة منبثقة من الرضا ، لامن القهر والخوف من العقاب .... وهو الكفيل بالتطوع النبيل فوق ما تفرضه الضرورة وما يفرضه القانون . التطوع الذى يرتقى بالإنسانية إلى الرضا ويحثها إلى التقدم للأمام .

لا يفوتنا هنا أن نوضح دور العبادة وأنها الوسيلة الفعالة لتربية الروح . فالعبادات المفروضة من صلاة وزكاة وصوم وحج كلها قد قصد بها تربية الروح وهى تواجه الحياة الواقعة بما فيها من مشكلات وعقبات .

فالصلاة جوهر العبادة ومن ثم كانت العناية الشديدة التى يوجهها إليها الإسلام . والمسلم حين يتوضأ فإنه ينظف يديه وعينيه وأذنيه وساعديه وقدميه . ينظفها جميعاً لامن الوسخ الظاهر ولكن مما اقترفت من الآثام . وقد كان رسول الله ﷺ وهو يوجه المسلمين لهذا المعنى ويكرره عليهم يهدف إلى أن يكون الوضوء مدخلاً إلى الصلاة بقلب خاشع وضمير يقظ وتطلعاً إلى الله .... إلخ فليس المقصود أن ينصرف الوضوء إلى معناه الحسى الظاهر فيفقد معناه .

من هنا فالصلاة تربط الإنسان بخالقه فإذا هو كائن عجيب يقف بجسمه على الأرض وروحه تسبح فى السماء .

والصيام حين يؤدى على أصوله ويتوجه به الإنسان إلى الله حينئذ تملأ التقوى قلب المسلم وتنطلق روحه إلى آفاق عالية من النور المشرق .

والزكاة .... تطهير للنفس من الشح ، وإطلاق للروح من البخل . وحينما تؤدى الزكاة فإن كل الأمة الإسلامية تصبح قريبة كل القرب تشملها الأخوة ، التى تخرج بالإنسان عن الشعور بالتملك ، فليس هناك مالكاً سوى الله والناس دائماً أخلاء بعضهم يساعد الآخر ويؤدى ماعليه من زكاة .

والحج يشهد حالة من الشفافية التى يحسها الحجاج وهم يسيرون حيث سار الرسول ﷺ ويصلون حيث صلى وحيث نزل عليه الوحى وحيث جاهد وصابر وحارب وانتصر إن هذه المواقف تصل الإنسان بالله بل تهز الوجدان وتؤثر فى النفس

وتحدث الكثير من طهارة الروح[1] .

وبهذا المعنى فإن العبادة بجميع صورها تصل العبد بالله بل وتصبح هى التربية الدائمة للروح .

ومن ثمرة العبادة الإحساس الوثيق بالله رب العالمين إحساس صادر عن يقين بأن الله هو الذى يتولى عباده ومن هنا فالفرد ــ يحس فى قرارة نفسه بالراحة والاطمئنان فيعمل على تهذيب نفسه فتترى روحه ويتطهر قلبه .

التربية الإسلامية والوراثة والبيئة :

للوراثة والبيئة أثر كبير فى الطبيعة الإنسانية وقد شغلت الوراثة والبيئة الفكر الإنسانى منذ عهد بعيد .

وتكمن المشكلة فى طرح هذا السؤال هل شخصية الفرد موروثة أو مكتسبة ؟ ودار جدال حول هذا السؤال فمن العلماء من أرجع التأثير فى الطبيعة الإنسانية إلى عامل الوراثة وحده ومنهم من أرجعه إلى البيئة وأغفل الوراثة . ومن العلماء من ذهب إلى أن الطبيعة الإنسانية هى حصيلة تفاعل الميراث الفطرى أى البيولوجى للفرد مع بيئته .

تعريفات :

الوراثة :ــ هى كل العوامل الداخلية التى كانت موجودة عند بداية الحياة أى عند الإخصاب .

كما تعرف الوراثة كذلك : تلك الاستعدادات العامة والخاصة الكامنة فى الفرد والتى تستجيب للمؤثرات الخارجية والداخلية فتنشط .

البيئة : هى كل العوامل الخارجية التى تؤثر تأثيراً مباشراً أو غير مباشر على الفرد منذ أن تم الإخصاب وتحددت العوامل الوراثية .

والبيئة بهذا المعنى تتضمن : العوامل المادية والاجتماعية والثقافية والحضارية .

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر :
محمد قطب . منهج التربية الإسلامية . جـ ١ ص ص ٣٨ ــ ٧٤ .

كما تعرف البيئة: بأنها تلك المؤثرات الطبيعية والاجتماعية .

أولاً : الوراثة :

الإسلام يؤكد أثر الوراثة فى نمو الإنسان وفى سلوكه وفى حياته المختلفة . والوراثة هى القوة الطبيعية التى تنقل إلى الفرد صفات من الأصل وإن الأسرة هى الوسيلة التى تنتقل من خلالها تلك الصفات والخصائص الوراثية .

ويتضح تقدير الإسلام للوراثة فى اعترافه بأن الصفات الوراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء قال تعالى : ﴿ **إنَّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذريةً بعضها من بعض** ﴾ وقال ﷺ « إن الله اصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » وقال ﷺ « تخيَّروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم » والمراد بالكفاءة النضج النفسى والعقلى والمستوى الخلقى والدينى وذلك ما يعبر عنه الإسلام تارة بالتقوى والخلق وتارة بالدين والأمانة . قال ﷺ« إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

وهنا يؤكد أهمية العامل الوراثى فى تربية الإنسان المسلم ، لذلك يجب الاهتمام بهذا الجانب قبل ولادة الطفل باختيار الزوجة الصالحة المتصفة بالصفات الجسدية والخلقية والنفسية والصحية حتى يكتسبها الطفل منها ومن والده .

والإسلام يحبذ الزواج من الأجنبيات من الأسرة ، فقد قيل « اغتربوا ولا تضووا » أى إنكحوا من الغريبات حتى لا تضعف أولادكم . من هنا فقد قال بعضهم الغرائب أنجب ذلك أن الزوجين إذا كانا من أسرة واحدة انتقل إلى أولادهما جميع الصفات الوراثية السيئة التى تختص بها أسرتهما لوجود هذه الصفات بشكل ظاهر أو مستكن فى الأبوين معاً . بينما إذا كانا من أسرتين مختلفتين فإنه يندر أن يتحدا فى صفة وراثية سيئة(١) .

ثانيا : البيئة :

يتناول الإسلام البيئة وتأثيرها الشامل فى الطبيعة الإنسانية من جميع الجوانب الخارجية والداخلية . ولم يقتصر الإسلام على جانب واحد من تلك العوامل وسوف

---

(١) محمد المرصفى ، ليلى عطار . محاضرات فى التربية الإسلامية . مرجع سابق ص ص ٨٠ — ٨١ .

نتحدث عن كل من البيئة الداخلية والخارجية كل على حدة .

(أ) البيئة الداخلية (رحم الأم) :

يعيش الطفل فى رحم الأم تسعة أشهر وهى الفترة التى تنفتح فيها إمكانياته الوراثية وتظهر فيها خصائصه البشرية وفى هذه الأثناء يحوطه سائل رحمى داخل غشاء الرحم الذى يجعل الحرارة مناسبة ومنتظمة حوله كما يعزله عن الضوء والصوت ويحجبه عن الارتجاج والصدمات ومن خلال الحبل السرى يصل إليه الغذاء . وقد اهتم الإسلام بالعوامل المؤثرة فى بيئة الرحم اهتماماً كبيراً تتمثل فيما يأتى :

تأثير غذاء الأم : فإذا كان غذاء الجنين يأتى من مجرى دم الأم فإن على الأم أن تحصل على غذاء مناسب إذا أريد لها أن تلد طفلاً صحيحاً سليماً .

* على الأم أن تبتعد عن تناول الخمر والعقاقير المخدرة فقد ثبت أن إدمان الخمر والمخدرات وإفراط الأم الحامل فى التدخين له أسوأ الأثر على نمو الجنين .

* أيضاً على الأم الحامل أن تبتعد عن مصادر العدوى لأنها تعوق نمو الجنين وتؤثر فى إستقراره داخل الرحم . فقد أشارت الشريعة الإسلامية إلى أهمية سلامة الزوجين من كل عجز أو نقص خلقى بدنى قد ينتقل بالوراثة إلى الأبناء .

* بالنسبة إلى عمر الأم الحامل فيراعى أن يكون مناسباً لأنه يشكل تأثيراً على الجنين من حيث نموه ومن حيث تحديد قدراته وأوجه تصوره .

* من العوامل المؤثرة فى البيئة الداخلية على الجنين حالة الأم النفسية فقد ثبت أن الحالة الانفعالية لها أثرها فى سريان الهرمونات المختلفة فى الدم بنسب تختلف عن نسبتها الطبيعية واستمرار هذا الأمر يؤثر على الجنين نظراً لاضطراب غدة الأم التى تنعكس فى نقص أو إفراز الهرمونات وهذا يؤدى بالتالى إلى نقص نمو العظام أو الضعف العقلى . كما ثبت أن الخوف والغضب والتوتر والقلق عند الأم يستثير الجهاز العصبى وينعكس أثره فى النواحى الفسيولوجية مما يؤدى إلى اضطراب إفراز الغدد وتغير التركيب الكيمائى فى الدم وهذا يؤثر بدوره على نمو الجنين .

* المعاشرة بالمعروف والمودة والرحمة لها أبلغ الأثر على حالة الأم النفسية والانفعالية . وكلما ابتعدت الأم الحامل عن كل إحساس بالخوف والقلق والغضب كلما كان الأثر

إيجابياً على حالة الجنين الصحية والجسمية .

* الجو الإنفعالى والنفسى المناسب داخل الأسرة يؤثر أيضاً على الجنين . قال ﷺ « إستوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً » .

* يدخل فى التأثير على الجنين أيضاً تهيئة الجو النفسى : الصحبة بالمعروف بين الزوج وزوجته وتجنب النزاع والغضب وكان الصحابى الجليل أبو الدرداء يقول لإمرأته : « إذا رأيتنى غضب فرضنى وإذا رأيتك غضبت رضيتك وإلا لم نصطحب » .

* ومما يؤثر على الجنين أيضاً اتجاه الأم نحو الحمل فالمرأة التى يسوءها أن تكون حاملاً هى أكثر ميلاً إلى الاضطراب الانفعالى من المرأة التى يسعدها أن توهب طفلاً فقد ثبت أن النسوة اللاتى كن إيجابيات نحو الحمل كن متوافقات توافقاً حسناً فى زواجهن وكن يشعرن بالطمأنينة كما كن على تلاؤم وتكافؤ مقبول من أزواجهن .

وفى ضوء ماتقدم فإن البيئة الداخلية (رحم الأم) قد لقيت غاية العناية فى توجيه الإسلام حتى تتشكل شخصية الفرد الذى يتأثر بالعوامل الوراثية من الأب والأم على السواء .

البيئة الخارجية :

هناك ثلاثة أنواع للبيئة الخارجية تتفاعل فيما بينها لتؤثر فى تكوين الجنين . تلك العوامل هى :

البيئة الطبيعية ـــ البيئة الاجتماعية البيئة النفسية

أولا : البيئة الطبيعية : تتضمن البيئة الطبيعية كل مايحيط بالفرد من ظروف مادية كالحرارة والضوء والهواء والموقع الجغرافى . فلكل ذلك تأثير على الطبيعة الإنسانية التى تعكس أثرها على صحة الإنسان وعلى حالته العقلية والخلقية . وحياة الجسم ليست إلا تفاعلاً بينه وبين بيئته ، كذلك الحياة العقلية فهى ليست إلا تفاعلاً بين العقل وما يحيط به فالعقل لا يبقى ولا يرقى إلا بتفكيره فيما حوله واستفادته من البيئة التى تحيط به .

والبيئة الطبيعية عموماً تؤثر فى الإنسان ويؤثر فيها بما أوتى من عقل وجسم

وروح ، ومن خلال تعامله مع هذه البيئة يستطيع أن يحدث تغيراً كبيراً فيها بما يتلاءم مع حاجاته وطموحاته وآماله .

ثانيا : **البيئة الاجتماعية** : تتضمن البيئة الاجتماعية المؤثرات المختلفة التى يتعرض لها الفرد فى المجتمع وتشكله تشكيلاً خاصاً ، وتؤثر فى طبيعته وشخصيته على نحو ما ، سواء أكانت هذه المؤثرات معنوية كالتقاليد والمعتقدات والعلوم والأذواق والنظم والقوانين والآداب والفنون . أو كانت هذه المؤثرات مادية وهى مما أنتجته المدنية الحديثة من آلات وماكينات وبيوت .... إلخ .

ويبدو اهتمام الإسلام بتأثير البيئة الاجتماعية فى تشكيل الفرد عن طريق مؤثراتها المختلفة ، وقد أشار القرآن الكريم فى مواطن متعددة إلى إكساب الفرد الفضائل والسجايا الطيبة . جاء ذلك فى قصة مريم قال تعالى : ﴿ **قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً ياأخت هارون ماكان أبوك إمرأ سوءٍ وما كانت أمك بغياً** ﴾ . يقول ابن كثير فى تفسير الآية : أى أنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهد فكيف صدر هذا منك . وهناك أحاديث كثيرة تؤكد أثر البيئة الاجتماعية قال ﷺ « لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقى » .

ثالثا : **البيئة النفسية**: تؤثر الظروف النفسية التى تحيط بالفرد فى طبيعته وفى تكوينه تأثيراً بالغاً ، فالفرد الذى يعيش فى بيئة تشبع حاجاته النفسية تختلف طبائعه وأخلاقه عن الفرد الذى يعيش فى بيئة لا تشبع هذه الحاجات .

وكلما أشبعت حاجات الفرد الفسيولوجية كالطعام والهواء والنفسية كالأمن والمحبة كلما ارتفع مستوى نشاطه حتى يتمكن من تحقيق الحاجة التى يرغب فيها . وكل فرد يسعى دائماً إلى تحقيق المظاهر التالية ليغطى حاجته إلى الأمن ومنها :

ـــ الغاية التى يسعى لبلوغها .

ـــ الوسيلة التى يتبعها لبلوغ تلك الغاية .

ـــ المهنة التى يرتزق منها .

ـــ العلاقات الاجتماعية التى تصله بالأفراد المختلفين وبالثقافة القائمة . ويهتم الإسلام بالبيئة النفسية اهتماماً بالغاً حيث يرى أن إشباع حاجات الفرد النفسية فى بيئته

يسمح لإمكاناته المختلفة من التفتح ولقدراته وإستعداداته من الاكتمال[1] .

التربية الإسلامية ومشكلة الجبر والاختيار :

اختلفت الأنظار وتضاربت الأفكار فمن قائل بأن الإنسان مسير غير مخير ، ومجبر على ممارسة نشاطه الاختيارى وأنه كالريشة فى مهب الريح تتقاذفها كيفما تشاء .

ومن قائل بأن الإنسان مخير غير مسير وأنه يمارس أعماله الاختيارية بمحض إرادته ومشيئته ومن قائل بأن الإنسان ليس له من أعماله إلا الكسب أى أن الله يخلق الشيء عند مباشرته بمعنى أن الله يخلق الشبع عند الأكل ، ويخلق المعرفة عند الدراسة وكذلك وليس للعبد إلا الكسب وبه يصح التكليف والثواب والعقاب والمدح والذم .

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا ما موقف الإسلام من هذه القضية ؟

قرر الإسلام أن الإنسان خلق مزوداً بقوى وملكات واستعدادات وهذه القوى يمكن أن توجه إلى الخير ، كما يمكن أن توجه إلى الشر فهى ليست خيراً محضاً ولا شراً محضاً ، وإن كانت إرادة الخير عند بعض الناس أقوى ، وإرادة الشر فى البعض الآخر أقوى وبينهما تفاوت لا يعلمه إلا الله ، وفى الحديث الصحيح « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » وفى الحديث أيضاً « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ... » .

وهذا يؤكده قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ أى أن الله خلق النفس مسواة ومعتدلة قابلة للتقوى والفجور ومستعدة للخير والشر .

والله سبحانه وتعالى زود الإنسان بالعقل الذى يميز به بين الحق والباطل فى العقائد وبين الخير والشر فى الأفعال وبين الصدق والكذب فى الأقوال .

كما أعطى الله الإنسان القدر الذى يمكّنه أن يحق الحق ويبطل الباطل وأن يأتى

---

(١) المرجع السابق ص ص ٨٢ ــ ٨٩ .

الخير ويدع الشر وأن يقول الصدق ويجانب الكذب ، ورسم له منهج الحق والخير والصدق بما أنزل من الكتب وبما أرسل من الرسل ومادام العقل المميز موجوداً والقدرة على الفعل صالحة والمنهج المرسوم واضحٌ فقد ثبت للإنسان حرية الإرادة وإختيار الفعل .

من هنا فإن على الإنسان أن يوجه قواه إلى ما يختاره لنفسه من حق أو باطل ومن خير أو شر ومن صدق أو كذب قال تعالى : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ وفى هذا المعنى أيضاً يقول القرآن : ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾أى الطريقين وكل إنسان مسئولاً عن تهذيب نفسه وإصلاحها حتى تصل إلى كمالها المقدر لها قال تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾والآيات التى تقرر حرية الإنسان كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وماربك بظلام للعبيد** ﴾ وهذا الذى يقرره القرآن هو ما يشعر به الإنسان فى نفسه فهو يشعر بأنه يمارس أعماله الإرادية بمحض إرادته فهو يفعل منها مايشاء ويدع منها مايشاء ؛ وهو إذا فعل منها ماهو نافع استحق المدح وإذا فعل ماهو ضار استوجب الذم ، فلو لم يكن مختاراً ماتوجه إليه المدح على فعل ماهو نافع وما توجه إليه الذم على فعل ماهو ضار .

بل لو لم يكن الإنسان مختاراً لما كان ثمة فرق بين المحسن والمسىء إذ أن كلاً منهما مجبر على مايفعله ولبطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد يقال إذا كان الله منح العبد الحرية والاختيار فما معنى قوله : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ فنقول معناها أن الإنسان لا يشاء شيئاً إلا إذا كان فى حدود مشيئة الله وأرادته ، فمشيئة البشر ليست مشيئة مستقلة عن مشيئة الله ، والله قد شاء للإنسان أن يختار أحد الطريقين : طريق الهداية أو طريق الضلال .

وإذا اختار الطريق الأول ففى نطاق المشيئة الإلهية ، وإذا اختار الطريق الثانى ففى نطاقها أيضاً وكل الآيات التى جاءت لا تتعدى هذا .

أما معنى الضلال فى قوله تعالى : ﴿ **يضل من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ فمعناه أن الله يضل من يشاء إضلاله ويهدى من يشاء هدايته وإذا كان الله يضل

ويهدى فليس للعبد حرية الاختيار ، والواقع أن الهداية والضلال نتائج لمقدمات فكما أن الطعام يغذى والماء يروى فهناك أيضاً أسباب توصل إلى الهداية وأخرى توصل إلى الضلال . فالهداية ثمرة العمل الصالح والضلاة ثمرة العمل القبيح .

فإسناد الهداية والإضلال إلى الله من حيث أنه وضع نظام الأسباب والمسببات لا أنه أجبر الإنسان على الضلالة ولا الهداية(١) .

التربية الإسلامية والفردية والجماعية :

يوجد ازدواج فى داخل الإنسان : إحساس الفرد بفرديته ، وإحساسه بالميل إلى الاجتماع مع بنى جنسه وهذه الظاهرة لها أثر بالغ فى حياة الفرد وفى كيان المجتمع وبعض الفلاسفة يوسع دائرة الفردية حتى يصل إلى الأنانية المرذولة التى يترتب عليها تفكك روابط المجتمع . وأحيانا ترى بعض الفلسفات أن توسع دائرة الجماعية حتى تقضى على كيان الفرد وتلقى شخصيته .

ويتنازع العالم اتجاهين : الاتجاه الرأسمالى والاتجاه الشيوعى أما الاتجاه الرأسمالى فإنه قائم على أساس فردية الإنسان ، فهو يوسع له فى حدود فرديته ، ويترك له حرية التصرف الذى يصرف فيه كثيراً إلى حد الحرج والعدوان وممارسة الأهواء والشهوات وتحطيم القيم والأخلاق وامتصاص الجهد والدماء وفساد المجتمع وتصور الناس للحياة . كل ذلك بحجة الحرية الشخصية .

أما الاتجاه الآخر فهو الشيوعية التى تقوم على أساس جماعية الإنسان ، فتوسع فى دائرة الجماعة أو فى حقيقة الدولة وتحجر على كل نشاط للأفراد ، حتى يصبح الإنسان ترس فى آلة اسمها المجتمع فتفرض على المجتمع نظم معينة وتعين لهم أماكن للإقامة وتفرض عليهم أفكار ومشاعر ولا تترك لهم سبيلاً للاختيار .

وهذه الفلسفات تفترض أنه إذا كان الإنسان فردى النزعة فالمجتمع إذاً مفروض عليه من خارج نفسه متحكماً فيه بغير إرادته ومن ثمَّ فهو مكره .

وعلى وجه العموم فهذه الفلاسفات لا تنتبه إلى الطبيعة المزدوجة لهذا الكائن البشرى التى تبدو متناقضة حين ينظر إليها من الخارج ولكنها فى الواقع مترابطة وهى

(١) السيد سابق . العقائد الإسلامية . مرجع سابق ص ص ٩٧ ـــ ١٠٤ .

تؤدى مهمتها فى حياة الكائن البشر بتناقضها ذلك وترابطها كما يؤدى مهمة الحب والكره والرجاء والخوف ... إلخ ثم يخرج لنا فى النهاية مخلوق متعدد الجوانب موحد الكيان .

إن فى صميم الفطرة هذين الخطين وكل منهما حقيقة بينما التناقض يحدث فى باطن النفس كما يحدث الاضطراب فى واقع الحياة حين تزيد النسبة المقررة لكل واحد فينحرف عن مساره ويعتدى على مسار الآخر ويشده إليه أما حين يأخذ كلاً منهما مداره الصحيح فلن يحدث التنافر بين الفرد والجماعة أو يحدث الشقاق .

والحقيقة أنها مهمة عسيرة ولكنها ليست مستحيلة .

والإسلام يوفق بقدر مافى طاقة البشر بين النزعتين الأصيلتين المتناقضتين فى الظاهر ؛ فالإسلام دين الفطرة وهذه فطرة الإنسان فرداً داخل المجموعة ، أصيل الفردية أصيلاً فى الميل للمجموعة وهو دائم التقلب بين نزعيته المتناقضتين كما يتقلب فى نومه من جانب إلى الآخر ليستريح ولكنه فى كل لحظة شامل لجانبيه معاً على اختلاف فى النسبة والمقدار .

والإسلام يعالج كلا النزعتين فيغذيهما معاً ، ويجعلهما متساندتين بدلاً من أن تكون متنازعتين إنه يحتاج إليهما معاً لأن الفطرة لا تستقيم بأحدهما دون الأخرى ولذلك لا يكبت الإسلام أياً منهما ولا يذيلها من الوجود .... .

والإنسان الذى لا شخصية له فى ذاته أو وجوده لا ينشىء إلا مجتمعاً مستضعفاً يصلح لأن يحكمه فرد متسلط ديكتاتور ثم يتهاوى حين يذهب ذلك الديكتاتور .

والإنسان الذى تبرز شخصيته ــ بانحراف ــ إلى حد الأنانية المرذولة أو الطغيان لا يستطيع أن يعيش فى وفاق مع الجماعة ولا بد أن يشتت المجتمع ويؤول إلى البوار .

من هنا فلابد من وجود الإنسان المتوازن فى فرديته والمتوازن فى ميله إلى الجماعة المتعاون معها ، وحينئذ يصبح المجتمع أشخاصاً حقيقيين ، أشخاصاً لهم وجود واقعى متساندين فى الوقت ذاته ذلك هو مايسعى إليه الإسلام وهو يصل إلى ذلك بوسائل متعددة .

فما الفردية ... الشخصية الاستقلالية ... الكيان الإيجابى القوى ... فينشئه الإسلام بربط القلب البشرى بالله هذه الصلة العميقة الوثيقة فى أعماق النفس هى عند كل إنسان صلته الشخصية الفردية بالله .

وإن الإنسان ليستغرق أحياناً فى العبادة إلى حد أن ينسى كل شىء فى الوجود غيره هو الله رب العالمين ويخيل إليه فى لحظة الاستغراق العميقة أن الوجود كله قد خلى من كل شىء إلا قلبه الخافق المتصل بالله فتمتلىء نفس الإنسان بالشخصية الإيمانية التى توجهه فى الحياة ، توجهه فرداً إيجابياً له كيانه .... إلخ .

هذه الصلة الفردية بالله هى التى تمنح الإنسان وجوده المستقل فهو لا ينبهم ولا يضيع فى القطيع .

وثمة عنصر أخر يربى هذه الفردية المستقلة ويميز كل شخص بمفره فى داخل حسه إنها المسئولية الفردية عن الأعمال قال تعالى : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ **لا تجزى نفس عن نفس شيئًا**﴾ ، ﴿ **بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره** ﴾ فهى إذا تبعة فردية لأن كل إنسان مسئول عن عمله لايستطيع أن يلقى حمله على غيره ولا هو يتلقى على كتفه أحمال الآخرين .

والشعور الدائم بهذه المسئولية الفردية يحدد للإنسان فى داخل نفسه كياناً متميزاً واضح الحدود . ذلك غذاء الفردية فى الإسلام إن الله سبحانه وتعالى الذى يتصل به القلب هو الذى يلين قلب الإنسان لأخيه فيحبه ويمنحه من نفسه ويفنى فيه وهذا الحب هو الرباط الحى الذى يربط الجماعة فيشدها كالبنيان المرصوص وبهذا الحب قام المجتمع الإسلامى الأول مجتمعاً كل فرد فيه أمة ، وهو على ضخامة شخصيته وإيجابياتها العديدة متحابٌ ومترابط لا تكاد تحس أين يبدأ كيان كل واحد منهم وأين ينتهى الآخر قال تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾.

هذا بالإضافة إلى أن طبيعة الإسلام ذاته تقتضى وجود جماعة متكافلة تقوم بالتكاليف الجماعية كما أن التصور الإسلامى والفضائل الإسلامية تحتاج إلى جماعة إلى وسط تحيا فيه وتنمو حتى تنشأ الأجيال على الفضائل . وهذه كلهامن

المهام التى لا يستطيع فعلها الأفراد متفرقين وإنما تقوم بها الجماعة مجتمعة فتصبح المهمة أيسر والثمرة أقرب .

وهكذا تتحد الجماعة فى الهدف وتتحد فى العمل فتلتقى قلوبهم وتتعاون وترتبط كلها بالله فى النهاية فلا يقوم بينها الشقاق والخصام وتلتقى النزعة الفردية والنزعة الجماعية كلتاهما فى نظام واحد(١) .

ثانيا : الأصول النفسية للتربية الإسلامية :(٢)

شغلت قضية النفس الفكر البشري منذ طفولته ، حيث ظهرت عدة معالجات لقضايا النفس والروح قبل ميلاد المسيح بزمن طويل ، وكانت هذه المعالجات تقع ضمن إطار الدراسات الفلسفية . وكانت أغلب هذه الدراسات تنصب على الروح ، ولكن علماء النفس المحدثين والمعاصرين أدركوا عدم جدوى البحث في الروح ، حيث لا يمكن فهمها وإخضاعها للدراسات العلمية ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾، ولذلك فقد اتجهت البحوث الحديثة في علم النفس إلى دراسة السلوك فقط صارفين النظر عن دراسة النفس أو الروح .

ويتضمن التراث الإسلامي في مجال الدراسات النفسية دورا لم يُكشف عن الكثير منها حتى الآن ، وما ظهر منها ينطوي على قيمة كبرى من الناحية العلمية ، وقد أثرت دراسات ابن سيناء والغزالي والفارابي وغيرهم تأثيرا كبيرا على علماء الغرب .

والواقع أن الدين الإسلامي الحنيف ، وضع أمامنا رؤية شمولية صادقة لطبيعة الإنسان ودوره ووظيفته ومصيره وبنائه النفسي ، حتى تكون واضحة للعمل على تهذيبها وتوجيهها وتربيتها وفق ماأراده الله تعالى .

والإنسان مؤلف من جانب مادي ترابي وجانب روحي إلهي ﴿ **وإذ قال ربك**

---

١) محمد قطب . منهج التربية الإسلامية . مرجع سابق . ص ص ١٦٢ — ١٦٨ .

(٢) انظر :
محمد على المرصفى ، ليلى عطار . محاضرات فى التربية الإسلامية ص ص ٩٥ — ١٦ .

للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ . وهو بهذا التكوين والطبيعة المزدوجة يمثل جانبين أحدهما إنساني والآخر ملائكي . وإذا كان للإنسان طبيعة مزدوجة بهذا الشكل فلا بد من إشباع الجانبين بشكل متعادل متوازن حتى لا يطغى أحدهما على الآخر ، ولو شاء الله أن يكون الانسان روحا خالصا لفعل ، ولو أراد أن يكون مادة خالصة لفعل ، وبما أنه سبحانه أراد له هذه الطبيعة المزدوجة فلا بد من إشباع حاجات البدن وحاجات الروح بشكل يحول دون طغيان أي منهما على الآخر . وهذا هو ماكفلته الشريعة الإسلامية التي ترفض الإسراف والتطرف وتؤكد على التوازن الكامل بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح ، أو بين مطالب الدنيا ومطالب الدين ، يقول الله تعالى : **﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾** ، وقوله : **﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾** .

وقد نظمت الشريعة الإسلامية علاقة الإنسان بالله كما نظمت علاقة الإنسان بالآخرين وأباحت له ممارسة نزعاته الفطرية ــ أكل وشرب وجنس وتمتع ... في إطار الحلال وفي إطار من التوازن والاعتدال .

والانسان بحكم بشريته مفطور على حب الشهوات لقوله تعالى : **﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾**.

وهذه الشهوات التي أوجدها الله في الإنسان لحكمة معينة وهي : استمرار الجنس البشرى (فطرة الجنس) ولرعاية الآباء للأبناء (فطرة الوالدية) والحفاظ على الذات (الأكل والشرب والنوم) وحفظ الدين والنفس والمال والولد (فطرة المقاتلة والعدوان) .

وعلى هذا فإن كان في النفس الإنسانية ضعفا فطريا ، فإنه زودها كذلك بمقومات تقواها وسموها وارتفاعها إلى الدرجات العلى **﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾**.

ويقوم التحليل الإسلامي الموضوعي الصادق للنفس على أن هناك ثلاثة

مراتب للنفس الإنسانية وهي :

أولا : النفس الأمارة بالسوء وتمثل النفس الشهوية العدوانية الأنانية وهي جوانب فطر عليها الإنسان ﴿ **وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم** ﴾ .

ثانيا : النفس اللوامة ، وهي التي تراجع صاحبها وتحاول العودة به إلى الحق والاستغفار وإلى الطريق المستقيم يقول سبحانه : ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾ .

ثالثا : النفس المطمئنة وهي أرقى مراتب النفس بإيمانها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره واتباع ما أمر الله والانتهاء عما حرم ، يقول تعالى : ﴿ **ياأيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾.

الحاجات النفسية:

نبهنا الإسلام الحنيف إلى أهمية الحاجات النفسية للإنسان ، فالرسول عليه الصلاة والسلام يوضح لنا بجلاء أهمية الحاجات الإنسانية وهي الحب والأمن الجسمي والأمن الروحي والأمن الاقتصادي ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام : « إنه من بات آمنا في سربه ، معافاً في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » . ويقول تعالى : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون** ﴾ .

ويربط الإسلام بين الأمن النفسي وبين التقوى والالتزام بالعقيدة الإسلامية والايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خير وشره ، فالتربية الإسلامية تخلص المؤمن من عقدة الخوف من المستقبل . فالمستقبل غيب ، والغيب بيد الله وحده ، كما تخلصه من عقدة الخوف من الموت فلكل أجل كتاب ، ولن تموت نفس حتى توفى أجلها ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، ثم إنه سبحانه وعد المؤمنين جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا تحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ... وهنا يقبل المؤمن على الشهادة بحب غير مدبر ويستعذبها إيمانا منه أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، وقوله : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** ﴾ .

كذلك فإن المؤمن يتحرر من عقدة الخوف على الرزق ، فهو يؤمن بقوله تعالى : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾، وقوله : ﴿ **إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ ، والمؤمن متحرر من القلق والخوف من الأشياء المجهولة ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم** ﴾وقوله : ﴿ **لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا** ﴾ .

ويدرك المؤمن أن الله سبحانه وتعالى يضعه في الدنيا موضع الاختبار والابتلاء فلا يجزع ولا يخاف ويظل محتفظا بتوازنه وبشعوره بالأمن والسلام ، لقوله تعالى : ﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾.

ويجد المؤمن الحق راحته النفسية في الصلاة ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول لبلال : « أرحنا بها يابلال » ، وجعلت قرة عينه عليه الصلاة والسلام في الصلاة كذلك فإن المؤمن يجد أمنه وراحته النفسية في تقوى الله وخشيته..

والمؤمن الحق لا ينقطع رجاؤه من الله سبحانه ، فهو يشعر بالأمن والرضا والطمأنينة في حضرة الله ، فهو في حضرة رحمان رحيم يغفر لعباده ويعفو عن كثير ، قال الله تعالى : ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ .

ويمكن إيجاز أهم هذه الحاجات النفسية التي يركز عليها علم النفس الحديث في ضوء القيم الإسلامية فيما يأتي :

الحاجة إلى الأمن:

الحاجة إلى الأمن غاية كبرى خصوصا لدى الطفل الذى يولد عاجزا ضعيفا لا يقدر على شيء قال تعالى : ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة** ﴾ . فهذا الضعيف العاجز لن يكتب له البقاء ولن يستمر في نموه إلا إذا أحيط بالأمان . والطفل في باكورة حياته يستمد الأمن من والديه وترتبط الحاجة إلى الأمن في طفولته المبكرة بالحاجات الفسيولوجية ويتوقف أمنه على مايلقاه من إشباع

لهذه الحاجات الأساسية كالحاجة إلى النوم والحاجة إلى تنظيم درجة الحرارة والحاجة إلى الإخراج والحاجة إلى الغذاء المناسب . والطفل إذا أشبعت البيئة له هذه الحاجات اطمأن لأفراد أسرته ، ومن ثم يطمئن لنفسه ثم لحياته بكل ماتشتمل عليه من أحداث .

ويؤكد الإسلام في بيئة الطفل النفسية على قيمة حنان الأم فهو أمر لازم لإحساسه بالأمن ولثقته بأمه التي يشتق منها ثقته بنفسه وبالمجتمع بأسره . وقد أثنى النبي ﷺ على نساء قريش لحنانهن على أولادهن فقال ﷺ : « نساء قريش خير نساء ... أحناء على أطفالهن » .

وثمة أمر هام في إشباع حاجة الطفل إلى الأمن قد تنبه إليه علماء المسلمين منذ عهد بعيد وهو فطام الطفل على التدريج لا دفعة واحدة يقول ابن قيم الجوزية إن أم الطفل « إذا أرادت فطامه أن تفطمه على التدريج ولا تفاجئه بالفطام وهلة واحدة . بل تعوده إياه وتمرنه عليه لندرة الانتقال عن الإلف والعادة مرة واحدة » ، ويوضح ابن الجزار القيرواني (من علماء القرن الرابع الهجري) كيفية الفطام التدريجي بقوله : « تنقص من لبنه وتعوده الفطام وتمرنه عليه كي لا يضره الانتقال بغتة » والتدرج في فطام الطفل أمر هام جدا للصحة النفسية للطفل ذلك لأن الفطام المفاجيء يمثل عملية حرمان قاسية لا يزال الرضيع أصغر من أن يتحملها . كما أن الفطام المفاجيء قد يكوّن عند الطفل بعض الميول العدوانية إزاء العالم الخارجي الذي يعتبر مسئولا في نظره عن حرمانه من صدر أمه » .

وفي البيئة النفسية يحرص الإسلام على عدم حرمان الطفل من أمه بالتفريق بينهما ، فذلك يزلزل أمنه خصوصا في سنوات حياته الأولى مما يؤثر في طبيعته وتشكيل شخصيته . وقد توعد رسول الله ﷺ من فعل ذلك بسوء العاقبة « فعن أبي أيوب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة » ، وقال ﷺ « ملعون من فرق بين الدة وولدها » ، حتى إذا عجز الوالدان عن إقامة علاقة أسرية سليمة فافترقا فإن الإسلام يوجب للأم حق حضانة الصغير حتى لا يحرمه منها في سنوات طفولته الأولى منعاً لإصابته بالانطواء والقلق وعدم القدرة على تكوين علاقات صحيحة مع

الآخرين . قد ورد أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاء وحجري له حواء وثديي له سقاء وإن أباه طلقني وزعم أنه ينتزعه مني ، فقال لها رسول الله ﷺ أنت أحق به .

ويعمل الإسلام على أن تكون البيئة النفسية للطفل بيئة مفعمة بالحب . فلكي يشعر الطفل بالحب إزاء العالم ، عليه أن يعيش في أسرته ، ذلك الحب وأن يتعلمه داخل مجتمعه الصغير ، أي أسرته . وللإسلام وسائله المتعددة في التعبير عن الحب للطفل من ذلك تقبيله ومعانقته وحمله والدعاء له وإبداء روح العطف والحنو عليه .

وتنال بقية الحاجات النفسية اهتمام الإسلام مما يترك آثاراً إيجابية على طبيعة وتكوين شخصيته فيشبع حاجته إلى التقبل . إذ الطفل يحتاج ــ لكي ينمو نموا سليما إلى دفء القبول وإلى الاستجابات الودودة معه سواء منها مايكون ذو طبيعة جسمية أو سيكولوجية . فيشعر الطفل في بيئته بتقبل الجميع له وأنه في هذه البيئة مرغوب فيه غير منبوذ أو مضطهد أو مكروه .

فالإسلام يرى أن الطفل في حاجة إلى أن يكون محبوبا مقبولا من الوالدين والآخرين بغض النظر عن جنسه (ولد أو بنت) ويوجب أن تكون استجابة الوالدين نحو الطفل أيا كان جنسه استجابة طيبة فلا ينبغي للمسلم أن تتجه استجاباته الانفعالية المفعمة بالحب نحو الذكور من الأطفال ، ولقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها إذا ولد فيهم مولود ــ يعني في أهلها ــ لاتسأل غلاما ولا جارية تقول هل خلق سويا ؟ فإن قيل نعم ، قالت الحمد لله رب العالمين ، بل لعل الإسلام يولي البنت ــ وهي الجنس الضعيف في نظر كثير من الناس ــ عناية خاصة فيقول ﷺ : من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها ــ يعني الذكور ــ أدخله الله الجنة . ويمنع الإسلام أن تدور اتجاهات الوالدين حول التسليم بتفضيل الذكر وامتيازه . ولقد ساوى المسلمون بين الذكر والأنثى في القيمة الإنسانية فقد « دخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنته عائشة فقال : من هذه ياأمير المؤمنين ؟ قال : هذه تفاحة القلب . قال انبذها عنك ، فإنهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء ويورثن الضغائن . قال لا تقل ياعمرو ذلك ، فوالله مامرض المرضى ، ولا

ندب الموتى ولا أعان على الأخوان إلا هن ، فقال عمرو ياأمير المؤمنين إنك حببتهن إلي » .

وتبدو قيمة البيئة النفسية ودورها الخطير في تشكيل الطبيعة الإنسانية خصوصا مع الأطفال المصابين بعجز أو قصور لأسباب خلقية أو مرضية . والإسلام يجنب هذا الطفل أن يكون موضع استهجان أو سخرية أو موازنة ومقارنة مع غيره من الأطفال الأسوياء . وفي هذا الصدد يحرم الإسلام النبذ بالقول والفعل : قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ ، وقال الرسول ﷺ « لا تؤذوا المسلمين ولا تعيِّروهم ولا تتَّبعوا عوراتهم » . وفي هذا الصدد أيضا حرم الإسلام تفضيل الأطفال الأسوياء عليهم فقال ﷺ « اعدلوا بين أولادكم » ، وقال عليه السلام « إن الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القُبَل » ، ولقد عرف المسلم دائما أن العاجز من أبنائه أولى بحبه ورعايته من غيره من الأبناء فقد قيل لرجل أي ولدكم أحب إليك ؟ قال صغيرهم حتى يكبر ، ومريضهم حتى يبرأ ، وغائبهم حتى يحضر » .

ولعل الطفل اليتيم يكون أحوج الأطفال إلى بيئة نفسية تتقبله وتشعره بالأمن والتقدير . والإسلام بتعاليمه يهيء له هذه البيئة النفسية ففي حشد من الآيات والأحاديث يدعو الإسلام إلى تهيئة الظروف النفسية الملائمة لتربيته ، كذلك الطفل اللقيط . يحرص الإسلام على تهيئة البيئة النفسية التي تساعده على النمو السليم بحيث لا يشعر في تلك البيئة أنه مكروه مضطهد منبوذ للسقْطة التي وقع فيها أبواه . قال تعالى : ﴿ **فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين** ﴾ ، وقد أعطى الإسلام للقيط ما أعطى الولد الشرعي من حقوق . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه « إذا أُتِيَ باللقيط فرض له من بيت المال ، وفرض له رزقا يأخذه وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ، ثم ينقله من سنة إلى سنة ، وكان يوصي بهم خيرا . ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال » .

هذا إلى جانب توفير الإسلام للبيئة النفسية التي تشبع حاجة الطفل إلى التحصيل والنجاح والإنجاز .

فإذا كان الطفل يسعى دائما إلى الاستطلاع « والبحث وراء المعرفة الجديدة حتى يتعرف على البيئة المحيطة به وحتى ينجح في الإحاطة بالعالم من حوله . وهذه حاجة أساسية في توسيع إدراك الطفل وتنمية شخصيته » فإن العديد من المسلمين قد أوصوا بضرورة تشجيع الكبار للطفل إذا استطاع أن ينجز عملا له قيمة ويرى ابن جماعة أن المربي إذا رأى الفرد قد أنجز ما كلف به شكره وأثنى عليه بين أصحابه ليبعثه وإياهم على الاجتهاد ، ذلك أن نجاح الفرد في إنجاز عملٍ يقوده إلى مزيد من النجاح .

غير أن إشباع هذه الحاجة لدى الفرد تقتضي تكليفه بما يستطيع أداءه من الأعمال ، ولا يخرج عن حدود إمكاناته وذلك مبدأ يحرص عليه الإسلام . قال تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾ .

هذا والطفل في حاجة إلى سلطة الكبار « وإلى نظام يفرض عليه كإطار للحياة المنظمة في البيت . كما أنه في حاجة إلى بعض الأوامر الملزمة والمعقولة التى تحد من نزعاته الانفعالية ونزعاته غير المرغوب فيها بشكل يجعله يساير جو البيت والمجتمع الذي يعيش فيه » .

ويدرك الإسلام دور البيئة النفسية في إشباع هذه الحاجة للطفل وأثرها في تكوين شخصيته وأثر النظام الذي يفرض على الطفلِ في أول الأمر كإطارٍ للحياة المنظمة في البيت وأثر الأوامر الملزمة المعقولة التي تحد من نزعاته واندفاعاته . يقول عمر بن أبي سلمة « كنت غلاما في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصفحة . فقال لي رسول الله ﷺ ياغلام سمِّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك . فما زالت تلك طعمتي بعد » .

وإذا كانت « وظيفة الأسرة هي إعداد الطفل للعيش في العالم الكبير ، وإذا مانظرنا إليها من وجهة النظر هذه فإن الآباء هم من الكفلاء والأوصياء على الطفل . وهم مسئولون عن إعداده لحياة الكبار الراشدين » فإن الإسلام يحمِّل الآباء هذه المسئولية لأنهم يمثلون في البيت المسلم السلطة الضابطة الموجهة روى البخاري عن ابن أوس أنه سمع أباه يقول : « كانوا يقولون الصلاح من الله والأدب من الآباء » كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : « أدب ابنك فإنك مسئول عنه ماذا أدبته

وماذا علمته وهو مسئول عن برِّك وطواعيته لك » ، وكان يقال : « من أدب ولد ولده أرغم حاسده »..

وقد اهتم المربون المسلمون ــ اهتماما خاصا بجماعة الرفاق التي تيسر للطفل القيام بأدوار اجتماعية متعددة وتكسبه الإدراك والوعي بالقيود التي تفرضها حياة الجماعة على الفرد باعتبار أن هذه الجماعة أداة من أدوات الضبط لسلوك أعضائها . فيذكر ابن سينا ضرورة أن يكون مع الصبي صبية « حسنة آدابهم مرضية عاداتهم ، فإن الصبي عن الصبي ألقن ، وهو عنه آخذ ، وبه آنس ، فإنه يباهي الصبيان مرة ويصطبرهم ويأنف عن القصور عن شأوهم مرة .... ثم إنهم يترافقون ويتعارضون الزيارة ويتكارمون ويتعاوضون الحقوق ... وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة » .

وقد أشار ابن سينا إشارة صريحة إلى أثر الوسط الاجتماعي في جماعة الرفاق في طبيعة الطفل من حيث لغته وتفكيره والمعايير التي يحكم بها على الأشياء فيذكر أن الطفل خلال أنشطته المختلفة مع جماعة الرفاق « يحادث الصبيان والمحادثة تفيد انشراح العقل وتحل منعقد الفهم لأن كل واحد من أولئك إنما يتحدث بأعجب ما رأى وأغرب ماسمع فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب ، والتعجب منه سببا لحفظه وداعيا إلى التحدث به » .

وهكذا يؤثِّر الطفل ويتأثر بجماعة الرفاق ، فيأخذ منهم ويأخذون عنه ألفاظه وقيمه وسلوكياته سواء كانت طيبة أم سيئة ، لذلك لا بد من اختيار الصحبة والجماعة المتحلية بالأخلاق الفاضلة الحميدة ، ليكون له أثره القوي في عملية التربية والتنشئة الأخلاقية والسلوكية .

الفصل الرابع

الأصول الاجتماعية للتربية الإسلامية

المقدمة:

يولد الطفل ولديه صفات بيولوجية ، يشترك فيها مع غيره من الأطفال ، ولكن ليس معنى ذلك أن الأطفال يتكونون بطريقة واحدة ، فلا يوجد فردان يتحدان في طريقة النمو .

من هنا فكل طفل يحاول أن يفرض احتياجاته ومطالبه على المجتمع ، وأيضا فإن المجتمع يفرض مطالبه عليه ، من حيث الالتزام بنمط معين في تناول الطعام ، وفي اختيار الأوقات المناسبة .

وهذا هو مايسمى بالمفاعلة بين مطالب الطفل وبين مطالب المجتمع ، وأثناء تلك المفاعلة يحاول الطفل أن يتخذ له مكانا في المجتمع .

من هنا يتخطى الطفل دور الفردية البيولوجية والاجتماعية ، بل أنه يتأثر تأثيرا واسعا بالمجتمع الذي نشأ فيه . ويؤثر أيضا.

وما يحدث من تغيرات أثناء عبور الوليد البشري من الفردية البيولوجية ، حتى يتخذ له مكانا بين الكبار الناضجين ، هو مايمكن أن نطلق عليه التنشئة الاجتماعية .

والفرد حينما يصل من مرحلة الطفولة إلى الشباب ثم إلى الرجولة ، يصبح فرداً ناضجاً له شخصيته المميزة القادرة على الأخذ والعطاء ، وبحيث يستطيع هذا الفرد أن يصير حاملاً للثقافة وناقلاً لها ، فتصبح سلوكياته وعاداته وتقاليده وطرق تفكيره متمشية مع المجتمع .

من هنا يمكن القول أن الكائن البشري ينتج الثقافة في مجتمعه ويستقبلها بعد أن كان مستقبلاً لها فقط قبل ذلك .

ولعل هذا هو السبب الذي من أجله استمرت الثقافة وتنوقلت من جيل إلى جيل .

ومما لا شك فيه أن المفاعلة والتأثير والتأثر الذي يحدث بين الأفراد ، ينتج عنه : تكوين شخصية الفرد ، وتكوين الحضارة الإنسانية ، وهما موضوعان على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للتربية .

من هنا فالتربية تبدأ بتشكيل الكائن البشري ، لأن السلوك الإنساني سلوك مكتسب ، يتعلمه الفرد بتعامله مع الأفراد الآخرين ، ومن خلال عمليات التدريب والتطبيع يمكن للفرد أن يكتسب القيم والأفكار والمعايير عن طريق الأسرة والمهنة والدين والسياسة والتعليم والطبقة الاجتماعية .

والطفل لا يتعلم تلك المعايير فقط لكونها ضرورية للقيام بالدور الاجتماعي ، ولكنه يقوم بها أيضاً لأنها ضرورية للفرد كما هي ضرورية للمجتمع .

من هنا تبدو أهمية التراث الثقافي المتمثل في اللغة التي يتكلمها هذا المجتمع للفرد وللمجتمع على السواء .

ولا يفوتنا أن نقدم هنا تعريفاً لبعض المصطلحات التي تفيدنا في تلك الدراسة وهي : التنشئة الاجتماعية ، التكيف الاجتماعي ، النمو الاجتماعي ، السلوك الاجتماعي .

(أ) التنشئة الاجتماعية :

وتعرف على أنها العملية التي تمكن الفرد من التكيف والتلاؤم مع بيئته الاجتماعية . ويتم اعتراف الجماعة بهذا الفرد ويصبح متعاوناً معها وعضواً عاملاً فيها .

كما تعرف بأنها العملية التي يكتسب الطفل بها الحساسية للمميزات الاجتماعية كالضغوط الناتجة من حياة الجماعة والتزاماتها وتعلم الطفل كيفية التعامل والتفاهم مع الآخرين وأن يسلك مثلهم ، وتحتل العادات والتقاليد مكان الصدارة في التعليم .

(ب) التكيف الاجتماعي :

ويقصد به قدرة الطفل على الاستجابة لمطالب المجتمع الذي يعيش فيه ، بحيث يصبح قادراً أن يحذو حذو الأفراد في سلوكهم ، فالتكيف الاجتماعي هو وسيلة التربية في تنشئة الأطفال على نمو يجعلهم أعضاء صالحين في المجتمع الذي ينتمون إليه .

« التعبير عن الذات دون تدخل ودون اعتراض » ولذلك فلا قيمة مطلقاً للمدارس ولا للمربين .

من هنا فسلبيات تطرف التربية الطبيعية ينتج في تربية الطفل للحاضر وحده ، أو للمستقبل العاجل ، مما يحتم علينا إلقاء الضوء على اجتماعية التنشئة للطفل ، وأهميتها في تكوينه تكويناً متوازناً متكاملاً ، لليوم والغد وللمستقبل على السواء .

التربية عملية اجتماعية:

اجتماعية تنشئة الطفل وأهميتها:

على الرغم من قيمة البيئة والنشأة الاجتماعية في تربية الطفل ، إلا أن هناك جدالاً واسعاً حول نمطين للتنشئة :

(١) الوراثة (٢) البيئة .

وفى إطار هذين النمطين يمكن طرح السؤال كالآتي :

ما هو الدور الذي يمكن أن يلعبه الطفل في تربية نفسه ؟ .

وللإجابة على هذا التساؤل نجد أنفسنا أمام اتجاهين :

أ ـــ الاتجاه نحو البيئة واعتبارها العامل الرئيسي في التربية .

ب ـــ الاتجاه الوراثي واعتبار الوراثة هي الأساس في تربية الطفل .

يتزعم الاتجاه الأول هلفيتيوس ١٧١٥ ـــ ١٧٧١ الذي تساءل في كتابه : « الإنسان ، ملكاته العقلية ، وطرق تربيته » عن سبب اختلاف الناس اختلافاً كبيراً في قدراتهم وأذواقهم ، ويجيب أن هذا التباين يرجع إلى الاختلاف في التربية

والتعليم ، وقد اعتمد في هذا على نظرية (جون لوك) التي تقرر أن الحواس نوافذ العلم ، ومع أنه يقرر أننا لو سمحنا لشخصين منذ بداية ظهور إحساسهما أن يستقبلا إحساسات واحدة ، فإن عقليهما يتقابلان ويظلان متماثلين ، مع أنه يقرر ذلك إلا أنه يعود فيقرر أن هذا لا يمكن عملياً .

ومن هنا ترجح (من وجهة نظره) الاختلافات الفردية التي تفرق بين عقل وآخر بدرجة كبيرة أو صغيرة .

أما أصحاب الاتجاه الثاني (الوراثي) فيتزعمهم (جالتون) الذي رفع من شأن الوراثة ، والهبات الطبيعية ، فظهرت البيئة كأنها ذات قيمة ثانوية ، وتؤسس هذه المدرسة مبادئها على قوانين الوراثة الثابتة ، كما ترى أن الإنسان في هذه الحياة يسير بما ورثه من آبائه وأجداده ، تلك الوراثة التي لا دخل لنا فيها ، هذا وقد توصل بعض العلماء لهذا الاتجاه ، إلى أن خلق الشخص مرتبط بخلق أسلافه ، كما ترتبط صفاته الجسمية من طول القامة ونسبة رأسه بصفات أجداده .

من هنا فأصحاب هذا الاتجاه يرون أننا لو ضمنا للطفل خير الأسلاف والأجداد لنتج عندنا طفل جيد ، مهما يكن حظه من التربية ضئيلاً .

هذا في الوقت الذي يرى فيه أصحاب الاتجاه المقابل : أننا لو ربينا الطفل تربية صحيحة ، فإننا لا نجد قيمة للأجداد الذين انحدر منهم .

ونحن نرى أن في هذا تناقضاً بين الاتجاهين ، فالكائن الحي له استقلال ذاتي أو تلقائي ، وله يد في تقرير مصيره ، وهاتان الميزتان لا تجعلانه مستقلاً عن العوامل الوراثية ، ولا من العوامل البيئية ، ولكنهما تساعدان الكائن الحي على استغلال هذين المصدرين ، فمن ناحية المميزات الوراثية الجسمية منها والعقلية ، يمكن إدراك أنها متضمنة في الخلية المخصبة ، وأن الكائن الحي لا يستطيع تجزئتها أو فصل الجانب الروحي عن الجانب الجسمي ، كما أن النشاط التكويني للإنسان ومحور طاقته الإبداعية يمكن إرجاعها كذلك إلى تلك الوحدة (الخلية المخصبة) وأنها يمكن أن تستغل في المستقبل العوامل البيئية أو الوراثية في تحقيق نموها .

ومن هنا يمكن التوفيق بين الاتجاهين في أن العناصر التي ستتقبلها ذات الإنسان لا تكون شخصية فحسب ، فقد تكون عن طريق الوراثة أو عن طريق

البيئة .. وهكذا .

وسائط التنشئة الاجتماعية في التربية المعاصرة :

الأسرة: تلعب الأسرة دوراً أساسياً في التنشئة الاجتماعية للطفل ، ذلك أن العلاقات الإنسانية التي يكونها الطفل تكون مع الأعضاء المكونين لعائلته ، وأولهم الأم أو الأب أو من يقوم مقامهم في المجتمعات الحديثة . والطفل خلال هذه الفترة يجد أن سلوك الكبار يؤثر فى وعيه طبقا لقدرته على الاستيعاب وطبقا للاستجابات التى يقوم بها حسب قدراتهم الموروثة .

ومن هنا فالطفل عندما يكبر ، يقلد سلوك والديه ويتأثر بإيحائها حول العادات والتقاليد التي ربما لا تظهر آثارها إلا بعد سنوات عديدة .

ومن المفروض أن الأسرة تضم مجموعة من الأخوة والأخوات ، يشترك الطفل مع أخوته في بعض الصفات الموروثة عن الأسرة ، وربما يختلف عن البعض الآخر ، ولا شك أن وجود الأخوة والأخوات يلعب الدور الاجتماعي في نمو الطفل .

واختلاف الاستجابات بين أفراد الأسرة ، يعطي فكرة عن أنواع الاستجابات للسلطة والتقاليد التي يقدمها الآباء أو غيرهم ممن يكون تقليدهم أمراً مرغوباً فيه .

ولا شك أن التفاعل بين الأطفال الآخرين في المنزل يكون عاملاً مؤثراً في التنشئة الاجتماعية .

وخلال تعامل الطفل في الشارع ، يتعرض لمجموعة جديدة من الشخصيات المختلفة الأنواع والتي تتسم بعادات ومثل عليا مختلفة أيضاً ، فيتعلم الطفل خلال ذلك التكيف الذي قد يكون بطيئاً إلى حد ما ، والطفل خلال هذا التكيف يكافح مع زملائه للسيطرة أو لمنعها من جانب الآخرين ، فيتعلم طرق التكيف الذي يعد جزءاً هاماً من عملية التنشئة الاجتماعية .

وإذا كنا نلمح أن التكيف في هذه الفترة (النضج المبكر) تكون بطيئة فإن المرحلة الأولى لميلاد الطفل تشهد مجموعة من التفاعلات الاجتماعية ، والتي تتضمن التأثير والتأثر ، فهو يؤثر في غيره بحيث يستدعي استجابات معينة ، وهو يستجيب لغيره نتيجة سلوكهم نحوه ، والطفل لا يتأثر بما يوجد في ثقافته في مجملها ، وإنما

يتأثر بما تقدمه له الثقافة من أفراد معينين أو مواقف معينة .

ولا شك أن المرحلة المبكرة لميلاد الطفل تشهد مجموعة من الحقائق :

أ ـ الأفراد الإنسانيين الذين يتعامل معهم الطفل يميزهم على أنهم كائنات نشطة ، ويمكنه ذلك في الشهور الأولى من حياته .

ب ـ معاملة الكبار للطفل تتحدد بالطرق التي تكون الأم على معرفة بها بصفتها عضواً في مجتمع معين أو في طبقة معينة من هذا المجتمع .

جـ ـ تتحدد معاملة الكبار للطفل على أساس ما تفرزه الفروق الفردية في المزاج والشخصية وفي القدرات والاهتمامات ، فالأم ضعيفة العقل تعامل أطفالها بطرق لا تشترك فيها مع غيرها من الأمهات في المجتمع .

من كل ما سبق يتضح أن التفاعل الاجتماعي يترتب عليه عملية التعليم نتيجة للتغير الذي يحدث للكائن الحي وفقاً للاستجابة أو الاستجابات التي يقوم بها ، فالتفاعل الاجتماعي يصحبه دائماً تعلم ..

من هنا يمكن القول أنه باختلاف أنواع التفاعل الاجتماعي وميادينه ، تختلف أيضاً أنواع التعليم وميادينه .. وهكذا ، وإذا كانت الأسرة من أولى الجماعات التي يتفاعل معها الطفل ويحارب فيها ألوان الأخذ والعطاء ، فإن المجتمع هو الذي يمدّ الطفل بالخبرات العديدة التي يكتسبها من تفاعله مع الأطفال الآخرين داخل المجتمع ، ومن الخطورة بمكان حجز الطفل عن أقرانه داخل المجتمع ، على اعتبار أن الأطفال الآخرين غرباء عليه ، مما يجعله بالتالي يحطم هذا الحاجز في سنوات عمره التالية ، وهذا يؤدي إلى التأثير السلبي في حياة الطفل وعلاقاته مع الآخرين .

ومن أهم العوامل التي تؤثر في عملية التنشئة الاجتماعية للطفل ما يأتي :

ـ مركز الطفل أو تربيته بين أخوته ، فالطفل الأول في الأسرة غير الوسيط غير الأخير غير الوحيد ، كما أن الطفل المرغوب فيه غير المنبوذ .

ـ أعمار الآباء والأمهات ، فالأطفال من آباء متقدمين في السن غير الأطفال من آباء شبان ، وأيضاً تفاوت العمر الزمني بين الآباء والأمهات له تأثير في تنشئة الطفل .

- الظروف البيئية والاجتماعية والمادية التي يعيش فيها الطفل .
- مستوى ذكاء الطفل ، فالطفل الذكي أكثر حساسية لمؤثرات التنشئة الاجتماعية .
- طبيعة البنية الجسمية للطفل ، فالطفل القوي السليم البنية غير الطفل الضعيف .
- النمط الذي يتبعه الآباء في معاملة الطفل وعلاقاتهم بأطفالهم .

كل هذه تشكل عوامل مؤثرة في تنشئة الطفل داخل محيط الأسرة .

ومما لا شك فيه أن الأم هي العامل الرئيسي في الأسرة التي تربي الأسس الرئيسية لتحقيق الأمن للطفل وتحقيق استقلاليته ، ففي السنوات الأولى من حياة الطفل تقوم الأم بتلبية احتياجات الطفل كما تبذل جهدها من أجل تقريبه من الواقع عن طريق مجموعة من الإشباعات التي تقدمها للطفل أو تحجبها عنه .

هذا والطفل الذي تسعى أمه لتجنبه عوامل القلق وتقبله لقيم الأسرة تقبلاً صحيحاً ، تغدو استقلاليته ومعارضته عاملان إيجابيان في نمو شخصيته وقدرته على التعلم .

ويلاحظ أن حاجات الطفل تتركز حول الرغبة في الاستقلالية بدرجات تتناسب مع طبيعة نموه الجسمي والعقلي والوجداني والاجتماعي ، فالطفل في حاجة إلى الحرية في المشي والكلام والتسلق والهدم والبناء وفي حاجة إلى اللعب بكل مظاهره وأشكاله .

وقد يقع الآباء والأمهات في خطأ شائع حينما يعوقون إشباع حاجات الطفل ، خصوصاً حينما يبالغون في حمايته وهو ما يعرف بظاهرة « الإفراط في الحماية » فتراهم يقيدون حرية الطفل وأوجه نشاطه المتعددة ، فمثلاً يتضح هذا في حجب الطفل عن اللعب مع الصغار مخافة أن ينقل عنهم عادات سيئة أو أفكار مزدوجة .. وهكذا .

ومما يلوح أنه كلما كانت دائرة علاقة الطفل متسعة ، وتدرج من عاطفة الأمومة نحو الانخفاض كلما نما الطفل نمواً سليماً واتسعت علاقاته عن طريق الأطفال الآخرين الذين هم في نفس درجته العمرية خصوصاً مع أطفال الجيران والأقارب

والرفاق .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن اللعب يؤدي دوراً رئيسياً في حياة الطفل ، فهو مثل الأكل والنوم ، بل هو ضروري للطفل لدرجة أن منعه عنه يسبب خللاً في الجوانب الاجتماعية والمعرفية عند الطفل .

وقد تحدث « بياجيه » عن ثلاثة مراحل للعب عند الأطفال :

أ ــ اللعب الحسي الحركي .
ب ــ اللعب الرمزي .
جـ ــ اللعب ذو القواعد .

ومن فوائد اللعب للطفل يمكن ذكر الآتي على سبيل المثال :

- النمو الجسمي ، فعن طريق اللعب ينمو الجسم نمواً طبيعياً وتتكامل الأعضاء في اتساق وتوازن .
- زيادة الثقة عند الأطفال حينما يشعرون بقوتهم وأنهم يستطيعون السيطرة على الكثير مما يتناسب مع قدراتهم داخل البيئة التي يعيشون فيها .
- التمييز بين الأشياء وإصدار الأحكام والتحليل وحل المشكلات ، وهذا ينتج عادة عن اللعب التمثيلي .
- النمو العاطفي خلال حركات تمثيل .
- التعرف على المفاهيم من خلال النشاط الذاتي والخبرة .
- تمثيل أدوار الكبار والشخصيات المتعددة في المواقف المختلفة ، الأمر الذي يتيح للأطفال أن يمارسوا أدوار تلك الشخصيات في سهولة ويسر .

من هنا تبدو الأسرة أمام مسئوليات ضخمة في تنشئة الطفل وهي وإن كانت تتمكن من السيطرة على تربية الطفل في السنوات الثلاث الأولى من عمره إلا أن إشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية والعقلية وقبلها الجسمية يبدو أمراً صعباً بعد ذلك حيث يشترك مع الأسرة عوامل جديدة منها أطفال الجيران والأصدقاء والأقارب وجماعة الرفاق ويصبح دور الأسرة بالإضافة إلى ما سبق هو مراقبة الطفل والخروج به إلى بر الأمان خلال اتصالاته مع أقرانه ... وهكذا .

المدرسة :

إذا صح أن التنشئة الاجتماعية عملية متكاملة ، وإذا صح أن الأسرة تلعب الدور الرئيسي في بذر الأسس الأولى لمرحلة النضج عند الطفل ، فإن المدرسة أيضاً تلعب دوراً جوهرياً في تنشئة الأطفال خصوصاً حينما تشعر الأسرة أنها في حاجة إلى من يشاركها المسئولية في تربية الصغار ، حينئذٍ يبرز دور المدرسة .

والمدرسة هي الوسيلة الثانية التي تعمل مع الأسرة للتنشئة الاجتماعية للأطفال ، وهي وإن كانت وسيلة صناعية أنشأها المجتمع عن قصد لتحقيق أغراض معينة لتنشئة الأطفال ، فإن دورها لا يقل بحال من الأحوال عن دور الأسرة بل ربما يفوقها في أحيان كثيرة .

من أجل ذلك تحولت مسئوليات كثيرة ترتبط بالتنشئة الاجتماعية ، تحولت إلى المدرسة التي تقوم بهذه الوظيفة وفقاً لفلسفة المجتمع ووفقاً لأهدافه التربوية والفكرية . وتقوم المدرسة بهذه الوظيفة لتحقق تلك الأهداف التربوية والاجتماعية على السواء .

والمدرسة لكي تؤدي دورها في التنشئة الاجتماعية ، لابد أن تنطلق لتحقيق حاجات الأطفال خصوصاً فيما يرتبط بالنشاط والحركة ، بحيث لا يكون التركيز فقط حول الجانب المعرفي بل لابد أن يصاحبه الجانب النشاطي .

والنشاط المدرسي يهدف إلى صرف طاقات الناشئين وتشجيعها في أعمال وألعاب يقبلون عليها من تلقاء أنفسهم ، لأنها تستهويهم وتحقق ميولهم وذاتيتهم ، وتناسب استعدادهم ، وتبعث فيهم المرح والحيوية والتفاؤل ، والأمر الذي يشعر الأطفال بكيانهم الاجتماعي وبخصوبتهم الاجتماعية واندماجهم في المجتمع ، وإشباع حاجاتهم النفسية كالحاجة إلى التقدير والمرح واللعب .. وهكذا . هذا وإذا كانت بعض الآراء ترى أنه من المغالاة الاعتقاد في قدرة التعليم على الرسوخ الدائم الأثر في الذهن ، فإن آراء أخرى ترى أنه بالإمكان أن ننقش في الأعوام السبعة الأولى من حياة الأطفال ما نود نقشه ، أن أثر هذا النقش يستمر مدى الحياة .

ومن هنا فإن أكثر الناس ـــ من حسن الحظ ـــ يجتهدون فعلاً في نقش وجهة نظرهم عن الحياة في صدور أبنائهم سواء في الأسرة أو المدرسة . وهم إن لم يفعلوا ذلك فإن أبناءهم سيتلقون دروساً فاسدة عن طريق الصحف والسينما والروايات

وصحيفة الإعلانات .. وهكذا فإننا لا يمكن أن ننحي القيم الاجتماعية ونحن نربي أطفالنا ، كما لا نستطيع أن نغرس مجالات في نفوس أطفالنا لا تمت إلى القيم والأهداف الاجتماعية بصلة ، وبمعنى آخر فالتنشئة الاجتماعية تعكس البيئة الاجتماعية بأهدافها ووسائلها وقيمها وعاداتها وتقاليدها .. إلخ . هذا ومن النادر بل من المستحيل أن الآباء وحتى المعلمين يميلون أن ينشئوا الأطفال على عادات سيئة مثل : أن القوة حق وأن للقوى الحق أن يأخذ ما يستطيع الاستحواذ عليه ، وأن على الضعيف أن يتحمل ما يصيبه من الأذى والضرر أو أن الحياة ما هي إلا سعى وراء الملذات والمناهج أو أن العاقل هو من يتفادى أداء الواجبات لدولته أو جيرانه ، وأن الأفضل له أن يعيش هادىء البال مع أصدقائه وخلانه .

إذا بدت كل هذه العادات السيئة فمن الندرة بل من المستحيل أن يغرسها الآباء أو المعلمون في الأطفال ، فإن هذا يلقي بالتبعة على المدرسة في أن تنشيء الأطفال على الفضيلة وعلى الاعتقاد بأن ثمة فرقاً بين الحسن والقبيح ، بين الصالح والطالح .. وهكذا تبدو مسئولية المدرسة شاقة في عملية التنشئة الاجتماعية وفي تربية الأطفال تربية متسقة متناغمة سليمة .

والأطفال بلا شك نتاج القواعد والأنظمة التي يربون عليها ، وربما تصبح الطاعة والامتثال للأوامر من نتائج التسلط في التربية وفرض الآراء على الأطفال دون إبداء للأسباب أو المبررات .

من هنا جاءت طاعة الأطفال نتيجة لمؤثرات متعددة منها التهديد والعقوبة والإنذار وحينما تتبدد خطورة السلطة فإن ظاهرة الطاعة تختفي لأن الدافع إليها قد غاب أو زال .

« ولا شك أن التربية بهذا النمط الاستبدادي لا تحقق أهدافها ، حتى حين تنجح ، فليس نجاحها سوى انصياع للغير ودمج لمطالب الفرد مع مطالب غيره وتجاهل تام لشخصه ، لأن ذاتاً عليا غير ذاته تسيطر عليه ، وهي لا تقبل النقد ، بل تصبح مصدراً لقلق يصيب الطفل ولا يستطيع السيطرة عليه » .

والشخصية الانسانية عبارة عن مجموعة من الأنماط السلوكية المعينة والاستجابات المختلفة لمواقف معينة . وإذا صح أن السلوك الإنساني هو نتاج التفاعل

بين الطبيعة الإنسانية وبين البيئة الاجتماعية ، فإننا لا نستطيع أن ننسب السلوك إلى الذات وحدها أو إلى البيئة الاجتماعية وحدها ، ذلك لأن السلوك وظيفة اجتماعية تجمع بين الذات والبيئة الاجتماعية في تفاعل مستمر .

من هنا يخطيء من يرجع أسباب الانحراف إلى ذات الفرد الشريرة أو إلى إرادته الشريرة إلى المجتمع والمؤسسات الاجتماعية ومنها المدرسة .

والصواب أن الذات والمجتمع يمكن أن يؤدي إلى ظهور هذا الانحراف .

ومن هذا المنطلق تواجه المدرسة موقفاً صعباً ، وهي تستقبل أطفالاً يواجهون آخرين لأول مرة ، ويتعاملون أو هم مضطرون إلى التعامل معهم في الوقت الذي يبدون فيه غرباء بالنسبة لهم .

والأطفال هنا يتعلمون كيف يكيفون سلوكهم وكيف يختارون كلماتهم وكيف يعبرون عن أفكارهم وكيف يستجيبون لعالم اجتماعي جديد أكثر تعقيداً .

ولا شك أن الطفل وهو يتعامل مع هؤلاء فهو بالضرورة يتعامل مع غيرهم من أفراد المجتمع سواء وهو في طريقه إلى المدرسة أو عند عودته منها ، فهو يتعامل مع البائع ومع عسكري المرور ومع بائع الصحف .. وهكذا تتسع دائرة اتصالاته ويكون أفكاره ويتعرف على الكثير من أشكال السلوك عن طريق القصص التي يقرأها والتي تتحدى انتباهه .

ومن هنا يكون الكثير من عاداته ويتقبل المثل العليا السائدة في المجتمع ويصبح بذلك أكثر اجتماعية .

المجتمع (بمفهومه الواسع) :

إذا كانت الأسرة والمدرسة تلعبان دوراً أساسياً في تشكيل وتنشئة الطفل ، فإن المجتمع بمعناه الواسع ، وجميع مؤسساته يؤدي دوراً أساسياً في عملية التنشئة الاجتماعية أيضاً .

هذا ولا شك أن اختلاف البيئة ، واختلاف الأفراد الذين يكونون المجتمع ، واختلاف الأنماط الاجتماعية التي تحكم كل مجتمع ، تؤدي إلى الاختلاف في الاتجاهات عند الأطفال ، فالطفل في بيئة تجارية ، يختلف عن الطفل في بيئة زراعية ،

عنه في بيئة دينية ... وهكذا .

من هنا فالمجتمع (أي مجتمع) ينشيء أفراده على ما يعتقده سواء ما كان منها مرتبطاً بالقيمة الدينية أو السياسية أو الجمالية أو الاقتصادية ... إلخ ، ومن هذه القيم يمكن بلورة ثقافة هذا المجتمع .

وأيضاً فإن هذه القيم وتلك المعايير والاتجاهات تكون الإطار المرجعي للفرد ، بحيث يدرك الأشياء بطريقة متميزة وإطار المرجع هذا إذا استمر مع الفرد أصبح أساساً لتكوين الاتجاهات .

من هنا يمكن للفرد أن يحدد سلوكه ويوجهه الوجهة التي تتفق مع إطار المرجع هذا الذي أصبح متمكناً في شخصية الفرد ، ذلك لأنه ينشأ معه خلال مراحل عمره تنشئة اجتماعية ويتشكل تشكيلاً إنسانياً .

وفوق كل ما سبق فإن التربية هي التي تؤدي إلى اكتساب الفرد لقيمه ومعاييره وبالتالي فهي التي تؤدي إلى تكوين إطار مرجعي معين له .

ومما لا شك فيه أن تماسك الجماعة وشعور كل فرد فيها بأن حياة الجماعة هي حياته ، وأن وجودها هي وجوده ، إنما نتج عن اشتراك أفراد هذا المجتمع وتشابههم في الأطر المرجعية التي تسهل عليهم عملية الانتماء إلى الجماعة .

ولعلنا بعد هذا ندرك مفهوم « إطار المرجع » على أنه اصطلاح يستعمل لتوضيح الخلفية التي يمكن أن تؤثر في طريقة الإدراك للأشياء .

ولعل من المناسب أن نطرح هذا السؤال :

* كيف يمكن للفرد أن يكون اتجاهاً نحو الأشياء والرموز والأشخاص والمؤسسات داخل المجتمع ؟ .

الواقع أن الفرد طالما تحقق له البيئة حاجاته المادية والاجتماعية والأساسية ، فهو يعيش في حالة اتزان نفسي مع تلك البيئة . وعندما يشعر بمزيد من الحاجة ، سعى إلى إعادة الاتزان بإشباع حاجاته تلك .

وخلال هذا الإشباع يرتبط الفرد بالشيء الذي يرضيه ، والذي حقق له

حاجته ، ويصبح هذا الشيء إمارة على الرضا والاتزان بل ويصبح محبوباً عند هذا الفرد .

يمكن إدراك هذا عند الطفل في حالة شعوره بالجوع ، فتقدم له الأم اللبن ، فترتبط الأم بعملية الإشباع ، وحينما يشعر بالقلق ، تقدم له الأم وسائل الراحة ، فترتبط عنده بعملية الاتزان وتحقيق الحاجة ، وبتكرار هذا الموقف يكون الطفل اتجاه الحب نحو أمه .

وبطبيعة الحال فإن اتجاه الحب يتطور مع مرحلة النضج الجسمي والنفسي ، فيستقل هذا الحب عن الأسباب التي شكلته في البداية (الحاجات النفسية والفسيولوجية) فترى الفرد تتضح لديه صفة التعميم للحب نحو الأمهات جميعاً .

وهكذا يجمع الطفل في اتجاهه نحو الحب لأمه ، يجمع معه الأمهات جميعاً والآباء والأقارب واللعب التي يمتلكها ، بعد أن كان يضع كلا منها في اتجاه معين .

وبهذا يمكن القول أن الفرد الإنساني في ثقافته وتعليمه ، يمكنه أن يكون أنماطاً محددة في اتجاهاته ، وإن كان هذا بالطبع يستمر لسنوات عديدة عندما يرتقى مستواه العلمي والثقافي والاجتماعي .

ويرتبط الاتجاه عادة « بالقيمة » بمعنى أن كل اتجاه يدور في سلوكه حول قيمة معينة ، فالأم تتجه نحو حب طفلها ، طالما حقق هذا له الراحة ، وهي القيمة الأساسية لهذا الاتجاه وقد يكون الاتجاه قيمته تكمن في الجانب الديني ، حيث قد أثبتت الدراسات أن بعض الناس يستجيبون لمواقف مختلفة على أساس القيمة الدينية .

وقد تتعدد القيم فقد تكون جمالية أو سياسية أو اقتصادية أو مادية بجوار القيم الدينية .

والسؤال الذي يمكن طرحه هنا هو ما علاقة الاتجاهات بالإطار المرجعي ؟ وأيهما يحدد الآخر : الواقع أن كلاهما يعتمد على الآخر ، فالاعتماد المتبادل بينهما أمر مسلم به ذلك لأن الاتجاهات نحو الأشياء المختلفة لا يمكن فصلها بعضها عن بعض ، لكننا يمكن أن نربط بينها فى نظم متكاملة .

والإطار المرجعي قد يكون :

أ ــ إطاراً مرجعياً ذاتياً ، حيث يكون الطفل لنفسه بتفاعله مع البيئة الاجتماعية إطاراً مرجعياً ذاتياً يميزه عن بقية أفراد المجتمع فهو ذاتي ، وذلك مثلما يكون الطفل له إطاراً مرجعياً يحدد به أن الشيء الرخيص الثمن غير مرغوب فيه .. وهكذا .

ب ــ إطاراً مرجعياً مشتركاً ، حيث يشترك فيه الفرد مع بقية أفراد المجتمع ، وذلك مثله الأطر المرجعية المرتبطة بالمهن ، أو بالجنس أو بالجماعات الدينية ، فهذه تغلب عليها صفة المشاركة بين أفراد المجتمع أو بين أفراد الجماعة التي ينتمي إليها الفرد .

لذلك فالعوامل الموضوعية يختلف تأثيرها ويتحدد مداها بالعوامل الذاتية ، كما أن العوامل الذاتية يتحدد مداها أيضاً بالعوامل الموضوعية .. وهكذا .

على أننا نبادر فنقول بأن عملية التنظيم هذه تتضمن في داخلها عمليتا الحذف والإضافة معاً ، ذلك لأن التنظيم يعتبر عملية حذف لبعض العوامل ، وإضافة أخرى ، كما يتضمن التركيز على عدد منها دون الآخر ، وهذا في سبيل توجيه الفرد وتطبيعه بطابع البيئة وفقاً للموقف الذي يدركه في هذا الزمن بالذات .

وعلى وجه العموم فالتربية خلال تلك العمليات الانتقائية للأشياء المدركة هي التي تكون وهي التي توجه الفرد ، ليس بما لديه من عوامل ودوافع بيولوجية ، ولكن بما به من علاقات اجتماعية مع أفراد بعينهم في مجتمع بعينه .

من هنا فوفق تلك الخبرات التي يمر بها الفرد فإنه ينتقي ويختار ما يحقق الحاجات التي تكون لدى هذا الفرد ، وتتضمن تلك العملية أيضا الحذف والإضافة والتنظيم بشكل عام .

ولعلنا ندرك بعد هذا العرض أن عملية التربية في حد ذاتها ، هي عملية تطبيع اجتماعي للفرد ، وذلك أن الانتقاء من بين المثيرات ، ومن بين الاستجابات جزء لا يتجزأ من عملية تطبيع الفرد اجتماعيا ... وهكذا .

مراحل التنشئة الاجتماعية:

أولا: إشباع الحاجات الفسيولوجية :

وهي الفترة التي يشبع فيها الطفل الحاجات الفسيولوجية الأساسية بالنسبة له . والطفل في هذه المرحلة يرى أن الأفراد الآخرين يحققون له حاجاته تماما كما يجد الأشياء الأخرى في البيئة . والطفل في هذه المرحلة ينظر إلى إشباع هذه الحاجات نظرة ذاتية ، بمعنى أنه لا يدخل فيها القانون الطبيعي أو العادات الاجتماعية . ولا شك أن الذاتية هذه تتعارض مع الواقعية ، حيث أنها تدخل في اعتبارها الظروف الحقيقية في هذا العالم .

ثانيا : المرحلة المطلقة :

وفيها ينتقل الطفل من المرحلة الذاتية إلى المرحلة المطلقة .

هذا ولكي يحقق الطفل الإشباع لحاجاته الأساسية ، عليه أن يشكل الظروف الخارجية التي يكون الإشباع في ظلها أمرا ممكنا . وهذا يعني وجود عقبات أمام الطفل تقف في سبيل تحقيق مطالبه الذاتية ، فالأفراد الآخرون يعارضون رغباته ، وينتج عن ذلك أنه لكي يحقق رغباته عليه أن يكبت بعض دوافعه ، وأن يقوم ببعض الأعمال المعينة كاستعمال الملعقة بدلا من الإصبع الذي أصبح لا يحقق له إرضاء لحاجة معينة مثل الجوع . ثم إن الطفل في هذه المرحلة أيضا يصبح قادرا على تمييز أكبر بين الناس خاصة ، فهو يميز أمه عن أخيه عن أبيه ، أو بمعنى اخر يمكن أن يميز أن لكل منهم عملا بعينه .

ومن هنا فالطفل لكي يشارك الأم أو الأب أو الأخ فعليه أن ينوع ويغير في الفعل ، بمعنى أنه لكي يعمل لا بد أن يدخل الآخرين في حسابه ، فتتميز علاقته بأمه عن علاقته بأبيه عن علاقته بأخيه ، فهو يحب أمه ويصادق أخاه ويخاف أباه .

وبناء على ذلك فالطفل وهو ينتقل (يتعدى) من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية ، يلاحظ القواعد والقوانين ، وما يمنح وما يمنع حتى يستطيع أن يشبع حاجاته ويحقق رغباته .

ويلاحظ أن الطفل وهو في هذه المرحلة يؤدي دور الأفراد الآخرين ، فهو يمارس وظيفة رجل البوليس ، ودور بائع اللبن ... بل هو قادر بالإضافة إلى ذلك على أن يقلد أنماطا كاملة السلوك ، وقادر على التنبؤ بسلوك هؤلاء الكبار .

والطفل في مرحلة لاحقة يتعامل تعاملا مشتركا مع الأفراد الآخرين ، ويقوم بأنواع من التمييز أكثر عمقا ودقة ويتحدد سلوكه تبعا لهذا التمييز .

من هنا فهو ينظر إلى أمه على أنها قد تكونْ راضية في أوقات ، غاضبة في أخرى ، متشددة أحيانا ، متسامحة أحيانا أخرى .

.. والأم بهذا لها دور أصبح متغيرا تغيرا أكثر من التغيير المتوقع الذي كان ينظر إليه الطفل قبل ذلك .

وبناء على هذا يمكن القول بأن التنشئة الاجتماعية عبارة عن عملية يتم فيها تشكيل الأفراد الإنسانيين ليندمجوا في الإطار العالم للجماعة التي ولدوا فيها ويصبحوا أفرادا متكيفين مع هذه الجماعة وأنماطها وقيمها .

وفي هذا المقام لا نستطيع أن نغفل دور اللغة في عملية التنشئة الاجتماعية ، ذلك أن تلك اللغة تشتق أصلا من أجماع الجماعة والعرف الاجتماعي السائد ، فهي التي تحدد الرموز اللغوية ، وتؤدي إلى زيادة الفهم المشترك واتساعه وعمقه وإتاحة الإمكانيات الكثيرة التي تتم للتعامل والاتصال بين الأفراد والأفراد بين الأفراد والجماعات وبين الجماعات والجماعات الأخرى .

واللغة بهذا تهيىء للفرد قيامه بدوره الاجتماعي خير قيام ، وفقا للمعايير المشتركة التي تمثل قدرا مشتركا يمكن أن يبني عليه التفاعل والتأثير والتأثر .

من هنا يمكننا أن نقول بأن اللغة لها أهميتها في التنشئة الاجتماعية ، كما أنه ينتج عنها عملية التعامل الذي يتم من خلاله تكوين الاتجاه نحو الأفراد الآخرين .

هذا وخلال تلك المراحل لا بد أن ندرك أن التربية هي التي تقوم بعملية تشكيل الفرد الإنساني ، في مجتمع معين وفي زمان معين وفي مكان معين . كما أن تكوين الشخصية المعينة هذه لا بد أن تتفق أدوارها واتجاهاتها مع اتجاهات وأدوار المجتمع ...إلخ .

التنشئة الاجتماعية في التربية الإسلامية :

تعد الأسرة المسلمة والمدرسة من الدعائم الأولى في تنشئة الطفل المسلم ، وسوف نعرض فيما يلي للأسرة المسلمة ودورها التربوي وللمدرسة ودورها التربوي في الفكر الإسلامي :

أولا : الأسرة المسلمة وعملية التطبيع الاجتماعي :

تعد الأسرة المسلمة اللبنة الأولى في تربية الفرد المسلم . فالطفل يفتح عينيه على الأسرة منذ اللحظة الأولى لميلاده . وتأثيرها عليه يلعب دورا كبيرا في توجيهه وتكوينه ، وبالقدر الذي تقدمه الأسرة للطفل من مميزات تربوية بقدر ما يتكون ويواجه المجتمع .

ولا شك أن استعداد الأبوين لبذل الجهد التربوي ، واضفاء القدر المناسب لتنمية الطفل له أبلغ الأثر في تشكيله وتنميته . فالأب والأم هما حجر الزاوية الذي عليه يمكن أن نشيد صرح التربية الأسرية بالمنهج الصحيح . بمعنى أن الطفل من صنع والديه ، ونبت تربيتهما ، وإذا أحسن الغرس ، حسن الثمر ، وكانت النتيجة فردا صحيحا نفسيا وخلقيا واجتماعيا وروحيا وجماليا ... إلخ . قال تعالى : ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا** ﴾ . الأعراف ـــ آية ٥٨ .

ولا ننكر أن دور الأسرة ، يواجه بكثير من التيارات التي تعرقل السير في المنهج الصحيح للتربية الإسلامية . يبدو ذلك في اقتحام أجهزة الاعلام من مكتوبة ومسموعة ومرئية للطفل ، مما يشككه في كثير من القيم التي ترسخت لديه ، وتكونت عنده ، الأمر الذي يجعله يتذبذب بين قيم وتقاليد استقاها من الأسرة ، وبين ثقافة جديدة ، اقتحمت عليه فكره وعقله لا يحسن أي الطرق يسلك ، ولا أي المناهج يعتنق .

من هنا بدأت المسئولية الملقاة على عاتق الأسرة ، وغدا الطفل في أمس الحاجة إلى الوضوح في الرؤيا ، وتحديد معالم الطريق ، حتى يتخلص من هذا الغزو الفكري المشبوه ، والملوث بالتيارات الهدامة ، والفكر المختلط .

وحتى تحسن الأسرة مقاومة التيارات ، فإن عليها أن تعيد النظر في أساليبها التربوية ، وتتعرف على حاجيات الطفل النفسية والاجتماعية ، فلا تترك الفكر الملوث ينخر في قلبه وعقله ، بل عليها أن توفق بين قيمها الدينية وأساليب التنشئة الحديثة ، بحيث لا يقع الطفل بين شقي الرحى ويتوه في الطريق ، ويتبعثر جهد الأسرة ، ويصبح المستقبل للطفل رهنا للمصادفات والأهواء .

وإذا كانت الأسرة يتحتم عليها دائما وأبدا أن تضع مقومات تصون بها الطفل من الوقوع فريسة لتيارات هدامة ، إذا كان ذلك واجبا ، فإنه يصبح أوجب إذا بات وشيكا توجيه البرامج التليفزيونية مباشرة من البلاد المتقدمة إلى شتى أنحاء العالم ، ويغدو الطفل هدفا لتلك البرامج خصوصا إذا لم تكن هناك معاناة في الاستقبال والمشاهدة سوى فتح الأجهزة لأي بث موجه إليه من أية دولة شرقية كانت أم غربية ، ووقتها يكون التليفزيون ـــ مثل أجهزة الراديو ـــ ينقل الفكر ، ويغزو العقول في كل أرض وفي كل مكان وفي كل منزل .

حينئذ سيواجه الآباء بمشاكل لا أول لها ولا آخر ، ويصبحون غير قادرين على مواجهة تلك المشاكل أو الحد منها .

ويكمن خطر الغزو الثقافي على أطفالنا في الأمور التالية :

١ ـــ التعرض اللامحدود لهذا لغزو بالكلمة المكتوبة ، والآراء المتنوعة ، والفكرة المصورة والتقاليد الفاضحة المقرونة ، وذلك أن كثيرا من الروايات المسموعة تملأ الأسواق العالمية وتتسلل خفية في الظلام إلى مجتمعاتنا الإسلامية وهي مليئة بالقصص البوليسية والعاطفية والعدوانية ... إلخ . وطالما لا يجد الطفل المسلم ما يملأ فراغ وقته بالمفيد والجذاب والمبدع ، طالما لا يتوفر بين يديه ذلك ، فهو نهب شئنا أم أبينا لذلك الفكر .

أما الفكرة المسموعة ، فلا مناص من الاعتراف أن البث الاذاعي من بقاع الأرض ، يسلط كثيرا من برامجه ـــ ليس فقط بلغته الأجنبية ـــ بل في كثير من الأحيان بلغتنا العربية خلال موجاته الموجهة ، وكثيرا من تلك البرامج مملوء بالسموم التي يقع الأطفال ضحية لها ، حيث تهتز قيمهم وتتوه أمامهم الحقائق حول كثير من القضايا ، خصوصا إذا فقدوا برامج

محلية بديلة ، تشبع عندهم هذا التطلع ، وتصحح لهم كثيرا من المفاهيم الخاطئة ، ناهيك عن شرائط التسجيل الماجنة والمملوءة غناء وطربا وموسيقى بها هوس وجنون ، ينبهر بها الفتيان والفتيات ويقعون فريسة لها وضحية لتدنيها .

أما الفكر المصور ، فبالرغم من حاجة الطفل إليه في تفتيق ذهنه وتوقد قريحته ، إلا أننا مازلنا في حاجة إلى تنقية كثير منه ، من الخيالات اللامحدودة ، وعدم العقلانية في كثير من مواقفه ، الأمر الذي يربك الطفل ويضعه أمام تساؤلات عدة لا يجد لها إجابة شافية ، ويتأرجح بين المعقولات والمحسوسات بل وربما يزداد ثقة في قدرة الانسان إلى أبعد مما تحتمله قدراته البشرية .

أما التقاليد الفاضحة ، فتتركز في سفور المرأة في بعض المجتمعات ووسائل زينتها التي فاقت الوصف في الخروج عن آداب الإسلام وتعاليم الدين ، الأمر الذي يهون على الفتاة المسلمة قيمة الحجاب ، ويجعلها ترنو إلى مجاراة المدنية الملطخة بدماء الرزيلة والفساد .

ولا يقتصر التقليد على ذلك فهو ماثل أمامنا في مضامين حياتية يومية ، نلمحه في حفلاتنا ، نلمحه في جلساتنا ، نلمحه في علاقاتنا ، نلمحه في تصرفاتنا ، مما يترك سماته المؤكدة في ذهن الشباب والأطفال ، وينعكس ذلك على الحياة المستقبلية للفتيان والفتيات .

٢ — عدم الملاحظة أو المراقبة على قراءة أو سماع أو مشاهدة هذا الفكر الوافد . وعدم الحجر أو التوجيه ازاء ذلك التقليد الأعمى ، أو بمعنى آخر تخلت أسر كثيرة عن مسئولياتها لمواجهة هذا الغزو الثقافي ، فتركت الحبل على الغارب أملا في التمشي مع ظاهر تلك الحضارة الغربية ، وماهي كذلك في قليل أو كثير ، كما انشغلت أسر كثيرة بشئون أخرى قد تكون مادية أو غيرها ، وترك الأبناء والبنات نهبا لهذا الداء الدفين الخبيث الذي يسري في الجسم سريان الدم الملوث في دم الكائن البشري .

٣ — غدا الأطفال وقد فقدوا في الأسرة أسلوب الصدق في القول والاخلاص في

العمل والقدوة الصالحة بالمثال ، ولم يعد للصدق من قيمة عند الطفل إلا ألفاظا جوفاء يحفظها من كتاب ، كما بات الاخلاص في العمل قصة تحكى وأضحت القدوة الصالحة تراثا يتلى .

من هنا جاء الانفصال بين النظر والتطبيق ، والفكر والعمل ، بينما يقرن رب العزة جل وعلا في كثير من آيات القرآن الكريم الايمان بالعمل ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا** ﴾ (الكهف ــ آية ٣٠) ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا** ﴾ . (الكهف ــ آية ١٠٧) .

وبناء على ذلك انتهز أعداء الإسلام ، ذلك الموقف وبدأوا يشككون في كفاءة الإسلام على مواكبة الحياة العصرية ، مما جرف الكثير من الشباب والفتيات ــ على أقل تقدير ــ في اهتزاز فكرهم وتبعثر قيمهم الأصلية .

٤ ــ كما يكمن خطر الغزو أيضا ، في عدم وجود البدائل التي تنطلق من منطلقات إسلامية لتعوض الطفل هذا الفكر الوافد

ولو وعينا ذلك وابتكرنا الأساليب السليمة في ممارسة الرياضة بأنواعها المختلفة ، والثقافة بقنواتها المتعددة بحيث نواكب الفكر الحديث بمنهج إسلامي ، لو وعينا ذلك لقضينا على الكثير مما نعانيه في عالم اليوم ولاستطاعت الأسرة أن تأمن عاقبة هذه الفجوة الخطيرة في أساليب التربية .

ومن هنا يمكن أن نقول : إن المشكلة قائمة ، والتيار جارف ، والأمر جد خطير ، يحتاج إلى العلاج الأمثل الذي يقتلع الداء من جذوره ... وفي نفس الوقت علينا أن لا نظن واهمين أننا نستطيع أن نغلق على الطفل نوافذ الثقافة دون وجود بدائل عنها ، أو توجه الأسرة لتتخذ مواقف أكثر شدة وقسوة وغلظة وخشونة ازاء معاملة الطفل ، دون أن نضع لها التقييم الصحيح لكيفية إشباع حاجيات الطفل النفسية والاجتماعية والروحية والبدنية ، خصوصا في هذا العصر الذى تزاحمت فيه منافذ

الثقافة ، وصار عبثا محاولة التعمية على الطفل إزاء هذه الثقافات ، اللهم إلا في ظل البدائل المبدعة التي توجه الطفل من منطلقات إسلامية .

ثانيا: المدرسة كمؤسسة اجتماعية وعملية التطبيع الاجتماعي :

مما لا شك فيه أن بناء المدارس ، وتشييد المؤسسات التربوية بشتى مراحلها المختلفة هدف رئيسي ، تسعى كل المجتمعات ـــ على وجه التقريب ـــ إلى تحقيقه .

والهدف الأسمى من بناء تلك المدارس ، ليس هو البنية الظاهرية ، المكونة للعملية التعليمية ، بل يكمن الهدف الرئيسي والأساسي في تحقيق المساهمة الفعالة نحو ترسيخ وتدعيم القيم التربوية .

وتقاس استجابة الدول لعوامل التطور والتقدم الحضاري والتكنولوجي بمدى قدرتها على تحقيق الرخاء وبناء الإنسان المتكامل نفسيا واجتماعيا وثقافيا وروحيا ، ومدى قدرة المدرسة على تطبيق وتحقيق هذا الهدف .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا :

* كيف يمكن أن نحكم على نجاح العملية التربوية والتعليمية ؟
ثم ماهو المعيار الصادق لتحقيق هذا النجاح ؟ .

وأيضا هل يمكن النجاح التربوي في تخريج أفواج ضخمة من المتعلمين بصرف النظر عن تكوينهم الخلقي الكافي ؟ .

وهنا يمكن أن نقول بأن : المدرسة والمجتمع متلازمان رقيا وتخلفا ، تقدما وتأخرا ، تطورا وجمودا ، فحيثما يكون مستوى المجتمع يكون مستوى المدرسة . وحيثما يكون مستوى المدرسة يكون مستوى المجتمع ، فمن وظائف المدرسة أنها تعمل على زيادة كفاية المجتمع وفاعليته ، في معركة الصراع والتنافس الثقافي ، الذي بلغ ذروته في عصرنا الراهن ، وبات مؤكدا أن كل صراع بين الجماعات البشرية ، إنما هو صراع بين ثقافات ، وحضارات وطرق حياة .

وإذا كانت معظم العلاقات الدولية ، والعلاقات الخارجية بين المجتمعات لا تخلو من لون التنافس والصراع الثقافي ، فإن واجب المدرسة تزويد الجيل الناشيء

بأدوات هذا الصراع ، سواء منها الزراعية أو الصناعية أو الأيديولوجية (الجغرافية ، وقبل هذا وبعده الدينية) .

هذا وإذا تأكد لدينا أن المؤسسات التربوية والتعليمية ، وعلى رأسها المدرسة ، لم تسلم من هذا الغزو الثقافي ، بل كرس هذا الغزو حملاته وجهوده لبذر تلك السموم بين البراعم الغضة ، حتى يمكن تطعيم هذا الجيل بفكر ملوث ، يهدف إلى بلبلة الفكر ، وذبذبة الفرد من أجل زعزعة ثقته ، في معتقداته ومقدراته الثقافبة والحضارية .

أقول : إذا كان ذلك كذلك ، فما هو واقع المدرسة الحالى في المجتمع الإسلامي ؟ ، ثم كيف تسلل هذا الغزو الثقافي إلى المدرسة في المجتمع الإسلامى ؟ وهل المدرسة في المجتمع الإسلامى قادرة على مواكبة روح العصر في ميادين العلم المختلفة ؟ .

ثم هل المنهج في صورته الحالية ، يتيح الفرصة لبناء العقلية الابتكارية المبدعة ، القادرة على الصمود ، في وجه التيارات الإلحادية الهدامة ؟ وهل المعلم في المدرسة مهيأ نفسيا وعلميا ، وتربويا وخلقيا ودينيا ، لتحمل مسئوليته في بناء الفرد المسلم المتسلم بمقومات الثقافة الإسلامية ، القادرة على مواجهة التيارات الإلحادية الهدامة ، والغزو الثقافي الخطير ؟ .

ثم هل تلميذ المدرسة الحالي قابل ومهيأ لتحمل دوره في المستقبل ، سواء في جانب الفكر والنظر ، أو الإبداع والابتكاز ؟ .

لا شك أن المدرسة في مجتمعاتنا الإسلامية ، وفي صورتها الراهنة تحتاج إلى مراجعة ، للبرامج والمناهج ، وطرق التدريس ، حتى يمكنها أن تواكب العصر وتساير التقدم .

وصف عام لطبيعة المدرسة وأهدافها في العصر الحالي:

يغلب على طبيعة المدرسة في عصرنا الحالي أسلوب التلقين ، الذي يعني فرض وجهة نظر معينة على التلاميذ ، دون السماح لهم في غالب الأحيان ...

بمناقشة وجهات نظر أخرى ، كما يعني التلقين أيضا محاولة التركيز على نقل المعارف والتراث . كما هو من أجل المحافظة عليه والبقاء له على مر الأجيال والدهور .

من هنا فلم يكن هناك من هدف للمدرسة الحالية ، سوى أنها مكان لتطبيق مجموعة من العلوم والمعارف ، وتحفيظ المتعلمين لها ، دون الاهتمام بالجانب الابتكاري أو الإبداعي ، اللهم فيما عدا العلوم العلمية التي تحتاج إلى جهد جهيد من أجل الوصول بها إلى تحقيق أهدافها الحقيقية .

وعموما فلقد بات جل أهتمام المدرسة ، وخصوصا في المرحلة الابتدائية منصبا على التخلص من الأمية ، للسواد الأعظم ، في بلاد المجتمعات الإسلامية ، وخصوصا الفقيرة منها ، وإذا صح أن بعض تلك المدارس تولى وجهها شطر المواد الدراسية الأساسية ، فإنها لا تعدو أن تكون مباديء أولية في الحساب ، ومختارات معينة من القرآن الكريم والسيرة النبوية ، والأحاديث وبعض الدراسات في الأخلاق الإسلامية ، والتواريخ والمناسبات السياسية .

وحتى في المدارس الدينية (المعاهد المتخصصة) نجد مناهجها قد تقلصت ، لتغدو محصورة في علوم الدين : من فقه ، وتفسير ، وعقيدة ، وعلوم اللغة العربية ، دون ما ارتباط كبير بالمواد العلمية ، المرتبطة بالمفاهيم العصرية ، والنظريات العلمية الحديثة ، الأمر الذي ترتب عليه عزل خريجي هذه المدارس عن الفكر المعاصر ، وبالتالي حصرهم داخل نطاق محدود ، سواء في دور العبادة أو المؤسسات الدينية الضيقة .

من هنا بات التباين واضحا بين نمطين من التعليم : التعليم الديني والتعليم المدني وغدا معظم طلاب العلم ، وأولياء الأمور ، يجنحون إلى الدفع بأبنائهم وبناتهم إلى التعليم المدني ، حتى يتخلصوا من هذا الحصار المضروب عليهم .

ولا شك أن هذه النتيجة كانت الثمرة ، التي تمخضت عن الغزو الثقافي للمجتمعات الإسلامية ، وهذا مما يلقي بالتبعة علينا ، من أجل تبيان كيفية تسلل ذلك الغزو الثقافي إلى مدارسنا ، في المجتمعات الإسلامية ، وكيف أنه لعب هذا الدور الخطير ، في إرساء دعائم التعليم ، بصورة ازدواجية . دينية من جهة ومدنية من

جهة أخرى ، في حين لم يسلم كلا النظامين من قصور في الأهداف ، والمناهج ، وطرق إعداد المعلم ، ونوعية التلميذ .

وإذا كنا قد ألمحنا إلى ذلك في التعليم الديني ، فإن التعليم المدني لم يكن أكثر حظا من التعليم الديني ، حيث خلا في كثير من مناهجه ، من الجانب الروحي ، والعقائدي والفكري ، بل وحتى الابتكاري والإبداعي ، وماجاء مشتملا على ذلك ، فلا يتعدى القشور التي لا تستقر في ذهن المتعلم ولا تستكن في قرارة نفسه .

وإذا جاز لنا أن نقول : أن بعضا من بلاد العالم الإسلامي ، خصوصا التي انجلى عنها الاستعمار ، قد سعتْ وجدَّت في تطوير مناهجها ، وإضفاء مزيد من التعديلات والتنقيحات على تلك المناهج ، حتى تغدو متلائمة مع البيئة المسلمة ، إلا أنه وحتى الآن مازالت هناك ثغرات بتلك المناهج ، خصوصا مايرتبط منها بالجانب الروحي والديني والعقائدي وينحصر ذلك فيما يلي :

أ ــ ضيق المعرفة التحصيلية ، حيث أن مايقدم خلال المراحل الدراسية ، لا يحقق الهدف المنشود ، مما ينتج أفرادا قليلي المعرفة خصوصا في الجانب الديني .

ب ــ اعتماد كثير من المدرسين على أسلوب التلقين ، وهو أسلوب لا يؤثر كثيرا في نفوس التلاميذ ، ولا يجذبهم إلى الدرس .

ج ــ قصور بعض المناهج الدينية عن دراسة الشخصيات الإسلامية المتسمة بالأخلاق الحميدة .

د ــ إقحام معلمين غير أكفاء لتدريس المواد الدينية .

هـ ــ ضيق الوقت المخصص لتدريس المواد الدينية المرتبطة بالعقيدة ، فهو لا يتعدى ساعة أو ساعتين أسبوعيا .

بينما يبقى الامتحان فيها رهنا بالتأرجح بين الإلغاء والإبقاء ، وإن أجيز الامتحان فلا تضاف درجته إلى المجموع ، هذا في الوقت الذي يستغل فيه أحيانا وقت التربية الدينية لاستكمال تدريس مواد أخرى .

وهذا أمر يترتب عليه انصراف الكثير من التلاميذ عن هضم تلك المواد التي هي الركيزة الأساسية في بناء الفرد المسلم ، لأن الإسلام حينما يهتم بتربية الفرد ، فإنه

يعتمد في ذلك على مايتيحه للفرد من نصوص في العقيدة ، ومن هدي النبي ﷺ ، ومن خبرات تحيط به ، يكتسب من خلالها مواقف في الحياة تهديه إلى أقوم السبل ، وتساعده على أن يهضم ثقافته الإسلامية .

والفرد لا يتمكن من النمو نموا حقيقيا إلا إذا استطاع أن يواجه البيئة الطبيعية والاجتماعية وأن يتفاعل معهما في ظل من ثقافته الإسلامية التي اهتدى إليها .

الفصل الخامس

الفكر التربوى عند الإمام الغزالى

وابن خلدون

أولا : الفكر التربوي عند الإمام الغزالي :

ولادته ونشأته :

أ ـــ مولده:

ولد الغزالي بطوس من أعمال خراسان عام ٤٥٠ بعد الهجرة . وقيل إن والده كان يغزل الصوف ويبيعه في دكان صغير بطوس . ولما حضرته الوفاة ، عهد إلى صديق له بولديه أحمد ومحمد ليقوم بتعليمهما من فضل ما قد خلفه لهما أبوهما .

فلما مات والد الغزالي ، أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني المال الذي خلفه أبوهما ، فقال الصوفي للولدين : اعلما أني قد أنفقت عليكما ماكان لكما وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد ، ليس لي مال فأواسيكما به . وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما ففعلا ذلك . وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما ... وسبحان الله رب العالمين . وكان الغزالي يحكي ذلك ويقول : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله » .

ب ـــ الغزالي ونسبه :

هو محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي الغزالي ، حجة الإسلام وحجة الدين . برز في جميع أشتات العلوم ، المعقول منها والمنقول . له الفضل في إخماد نيران البدع التي لم تستطع أيدي المجادلين مسها . لقد كان الغزالي ضرورة جاء به القدر ليرد عن الدين فرية الفلاسفة ، فصال وجال بجلاد مقاله ، وحمى حوذة الدين بصفاء بيانه ، حتى أصبح الدين وثيق العرى ، وزالت عنه الشبهات والحديث المفترى .

هذا ومع اتصافه بالورع والتقوى ، وترك للدنيا بمباهجها ، وإقبال على الآخرة

في إخلاص المتقين وورع الصالحين .

وينحدر الغزالي من أسرة فقيرة ، فقد كان أبوه رجلا فقيرا صالحا ، لا يأكل إلا من كسب يده ، وكان دائم المجالسة للفقهاء والوعاظ من أهل زمانه ، كما اجتهد في الإحسان إليهم بما وسعه الحال .

كان إذا استمع إلى الفقهاء بكى وتضرع إلى الله أن يرزقه ولدا فقيها وإذا استمع إلى الوعاظ سأل الله أن يرزقه ولدا واعظا . وكان أن استجاب الله دعوته ، فكان أبو حامد إمام أهل زمانه وكان أحمد واعظا تنقلق الصم عند سماع تحذيره .

وسبحان الله العظيم إذ يقول : ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن الله** ﴾ .

ج ـــ مصادر ثقافته:

١ ـــ تعلمه وتعليمه :

بدأ الغزالي رحلته في التعليم ، بأن تلقى في صباه بعضا من الفقه ببلده ، على أحمد بن محمد الراذكاني ، ثم سافر بعدها إلى جرجان وجلس إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي ، وعلق عنه التعليقة ، ثم رجع إلى طوس ، وأثناء الطريق ، حدث أن خرج عليه قطاع الطريق وأخذوا مامعه بما فيها تعليقته . وحاول الغزالي أن يرد تعليقته ، فتبعهم ورجاهم أن يردوا عليه تعليقته . فقال أحدهم : « وما هي تعليقتك ؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها . فضحك وقال : كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها عنك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليَّ المخلاة .

قال الغزالي رحمه الله : فقلت هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري . فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنوات حتى حفظت جميع ماعلقته . وصرت بحيث لو قطع عليَّ الطريق لم أتجرد من علمي ...

ثم ارتحل الغزالي بعد ذلك إلى نيسابور ، وتتلمذ على إمام الحرمين « أبو المعالي الجويني » رئيس المدرسة النظامية . ولقد درس في تلك المدرسة علوم الفقه والأصول والكلام والمنطق والفلسفة .

وقد أظهر الغزالي ذكاء خارقا مما لفت الأنظار إليه ، فأحبه أستاذه وأجله زملاؤه ، وانصرف إلى الدراسة والتحصيل بكليته ، فاتسعت آفاقه ، وتصدى للتدريس والتأليف في حياة أستاذه الجويني مما زاد من إعجاب أستاذه به والتفاف الطلاب من حوله .

ولقد بلغ من شدة إعجاب أستاذه الجويني أن وصفه قائلا : « الغزالي بحر مفرق » يقصد علمه .

ولقد ارتحل الغزالي بعد ذلك إلى العسكر سنة ٤٧٨ هـ ، وهي محلة بالقرب من نيسابور ، كان يقيم فيها نظام الملك وزير السلطان السلجوقي « ألب أرسلان » وقد تمت رحلته هذه بعد موت إمام الحرمين .

ولما كان الوزير نظام الملك محبا للعلم ، عطوفا على العلماء ، يعظم من شأنهم ، ولما كان الغزالي صاحب امتياز خاص وجدارة علمية خارقة ، فقد أتاح نظام الملك للغزالي أن يناظر الأئمة والعلماء في مجلس نظام الملك ، فاعترف الجميع بفضله وعلمه . ثم ولاه نظام الملك التدريس في المدرسة النظامية ببغداد فأمره بالتوجه إليها . « فقدم بغداد في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ودرس بالنظامية ، وأعجب الخلق حسن كلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه ونكته الرقيقة وإشاراته اللطيفة ، وأحبوه وأجلوه محل العين بل أعلى وقالوا أهلا بمن أصبح لأجل المناصب أهلا » .

ولقد ذاع صيت الغزالي ، وأخذت تضرب به الأمثال ، ويقصده طلاب العلم ، بعد أن أقام على التدريس وتعليم العلم .

وعلى الرغم من هذه المكانة والمنزلة العلمية والأدبية التي حظي بها الغزالي ، إلا أنه بعد سنوات قليلة ، تعرض لحالة شرفت فيها نفسه عن رذائل الدنيا ، فرفض مافيها من الجاه والرفعة والمنزلة والمكانة الاجتماعية ، فترك ذلك وراء ظهره ، وهجر المدرسة النظامية ببغداد ، ويعم شطر بلاد كثيرة ، جاء خلالها قاصدا بيت الله الحرام حيث أدى فريضة الحج ، ثم قصد الشام في ذي القعدة سنة ٤٨٨ هـ وكان الغزالي قد خلف أخاه وراءه للتدريس .وقد قصد الغزالي خلال هذه الرحلة بيت المقدس ، ثم عاد إلى دمشق ، واعتكف في زاويته بالجامع الأموي والمعروفة حتى يومنا هذا بالغزالية .

الغزالي الزاهد :

نستطيع أن نميز ثلاث مراحل في حياة الغزالي :

الأولى : تجنح نحو دراسة الدين وعلوم الشريعة .

الثانية : تميل نحو علوم الفلسفة والمنطق ومشتقاتهما .

الثالثة : مرحلة التأمل والزهد والورع .

وفي خلال المرحلة الثالثة ، نلمح أن الغزالي لبس الخشن من الثياب وأكل الحاف من العيش ، وأكثر من التجوال للمشاهدة والعبرة والتأمل ، فزار الترب والمساجد ، وآوى إلى القفار وروض نفسه وجاهدها جهاد الأبرار ، وكلفها المشاق في عبادة الرحمن ، وامتحنها بأنواع القرب والطاعات ، ولقد قطع الغزالي شوطا كبيرا في هذا المضمار .

وقد عاد الغزالي بعد ذلك إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم على لسان أهل الحقيقة ، وحدث بكتابه الإحياء ؛

ثم ارتحل مرة أخرى إلى خراسان وقبل أن يدرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة وجيزة ، رجع بعدها إلى طوس مسقط رأسه ، وأقام إلى جانب داره مدرسة للفقهاء ، ومحلا للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ، ومجالسة أرباب القلوب ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات إلى أن وافته المنية في يوم الإثنين الرابع عشر من جمادي الآخرة عام ٥٠٥ هـ بعد أن خلف وراءه زادا للعالمين والعارفين . فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين الخير كل الخير ، والثناء كل الثناء .

أصناف العلوم :

يقسم الغزالي العلوم إلى ثلاثة أقسام :

١ — قسم مذموم قليله وكثيره ، وهو ما لا فائدة فيه في دين ولا دنيا كعلم السحر والظلمات والنجوم ، فبعضه لا فائدة فيه ، وصرف العمر فيه إضاعة .

٢ ــ قسم محمود قليله وكثيره ، وكلما كان أكثر كان أفضل وأحسن ، وهو العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وسنته في خلقه ، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا ، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة .

٣ــ قسم يحمد منه مقدار الكفاية ، وذلك كعلوم فروض الكفايات ، وهي العلوم التي لا يستغنى عنها في قوام أمور الدنيا كالطب والحساب والزراعة والحياكة والسياسة .

المقدار المحمود من العلوم :

يرى الغزالي أن البدء بتعلم العلوم المحمودة من المطلوبات بحيث لا يشتغل المرء بعلوم الكفايات قبل العلوم المفروضة .

وإذا فرغ من المفروضة اشتغل بعلوم الكفايات مراعيا التدرج فيها فيبتدىء بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ثم بالتفسير وسائر علوم القرآن من علم الناسخ والمنسوخ والمفصول والموصول ، والمحكم والمتشابه وكذلك السنة .

يلي ذلك الاشتغال بالفروع مثل الفقه وأصوله ... وهكذا إلى بقية العلوم بما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ، لأن هذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها .

من هنا ينصح الإمام الغزالي ، بأن يأخذ الإنسان من علم اللغة ما يعينه على تفهم كلام العرب وأيضا يأخذ من النحو ما يتعلق بفهم كتاب الله وسنة رسوله .

ويقتصر من الحديث على ماصح منه مستندا إلى رسول الله ﷺ . ومن الفقه يقتصر على مختصر المزني رحمه الله .

وأما علم الكلام فيقتصر فيه على كتاب قواعد العقائد ، لأن المقصود من الكلام حماية المعتقدات التي نقلها أهل السنة من السلف الصالح .

العلم الذي هو فرض عين والعلم الذي هو فرض كفاية :

يقسم الغزالي العلوم إلى فرض عين وإلى فرض كفاية :

أما فرض العين فقد اختلف في العلم الذي يندرج تحته على نحو أكثر من عشرين فرقة ، وكل فريق يحاول أن ينزل الوجوب للعلم الذي هو بصدده . ونقتصر من تلك الفرق على الآتي :

١ ــ المتكلمون : ويرون أن فرض العين من العلوم هو علم الكلام فيه يدرك التوحيد ويعرف به ذات الله وصفاته وأفعاله .

٢ ــ الفقهاء : ويرون أن فرض العين هو علم الفقه فيه تعرف العبادات والحرام والحلال وما يحرم من المعاملات وما يحل .

٣ ــ المفسرون والمحدثون : ويرون أن فرض العين هو علم الكتاب والسنة فيه يتوصل إلى العلوم كلها .

وجهة نظر الإمام الغزالي في العلم الذي هو فرض عين :

ينقسم العلم الذي هو فرض عين في نظر الإمام الغزالي إلى قسمين : علم معاملة ، وعلم مكاشفة ، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة .

والمعاملة المكلف بالعمل بها المسلم البالغ العاقل ثلاثة : اعتقاد وفعل وترك .

فمن بلغ عاقلا وجب عليه تعلم الشهادتين وفهم معناهما « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ويكفيه أن يصدق بذلك جازما من غير شك ولا ريب ، وربما يحصل ذلك بالتقليد أو السماع من غير دليل أو برهان . فمن فعل ذلك فقد أدى العلم الذي هو فرض عين عليه في هذا الوقت وهو تعلم الشهادتين وفهمهما .

وغير الشهادتين يجب تعلمه بحسب الأحوال ، وليس ذلك ضرورياً لكل شخص ، وتلك الأحوال قد تكون في الفعل أو الترك أو الاعتقاد .

فأما الفعل فبأن يباشر المسلم وقت الظهر فيجب عليه عيناً تعلم الطهارة والصلاة ، مراعاة في ذلك تقديم التعلم على العمل ، وبالمثل في بقية الصلوات .

فإذا عاش إلى رمضان فيجب حينئذٍ تعلم الصوم بكيفية شروطه ، فإذا تملك ما لا تعلم ما يجب عليه فيه من الزكاة بشروطها .

وأما الحج فتعلمه على التراخي ولكن ينبغي لعلماء المسلمين أن ينبهوه على أن

الحج فرض على التراخي فإن عزم أداء الحج تعلم كيفيته وأركانه دون نوافله .

والخلاصة : أن ما يعلم أنه ينفك عنه وغير ملابس له لا يجب تعلمه ، وما هو ملابس له يجب تنبيهه إليه ، كمن كان لابساً للحرير وقت إسلامه وجب تعريفه بذلك .. وهكذا .

بيان العلم الذي هو فرض الكفاية :

استخدم الغزالي طريقة تقسيم العلوم إلى شرعية وغير شرعية للوصول إلى درجة الفرضية لهذا العلم . وبين أن العلوم الشرعية ما استفيدت من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام . ومن صفات تلك العلوم أن العقل لا يرشد إليها كما في علم الحساب ولا ترشد التجربة إليها كما في علم الطب ، ولا يرشد السماع إليها كما في علم اللغة .

والعلوم غير الشرعية تنقسم إلى ثلاثة أقسام : ما هو محمود ، ما هو مذموم ، وما هو مباح .

والمحمود منها ما يرتبط به مصالح العباد في الدنيا لعلم الطب وعلم الحساب ، وهو بدوره إما أن يكون فرض كفاية ، وإما أن يكون فضيلة وهذا يتوقف على الغرض ومدى ودرجة فائدة الخلق منه .

فالطب ضروري لأنه به سلامة الأبدان وصحة الأجسام ، والحساب ضروري في المعاملات وقسمة المورايث ، ولكون هذه العلوم لو خلا منها بلد ما حرج أهل البلد وتعطلت مصالح العباد . لذلك كان تعلمها فرض كفاية .

وفرض الكفاية هو العلم الذي يستغني عنه في تسيير أموز الدنيا . كما يعد من فروض الكفايات أيضاً علوم الفلاحة والحياكة والسياسة والحجامة والخياطة .

أما ما يعد فضيلة من العلوم المحمودة ، فهو التعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب ، فيمكن الاستغناء عنه ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه .

أما المذموم من العلوم غير الشرعية فيشمل علوم السحر والشعوذة والتلبيسات .

وأما المباح منها فالعلم بالأشعار التي لا مزية فيها ونوادر الأخبار .

هذا بالنسبة إلى العلوم غير الشرعية والتى هي من فروض الكفايات ، أما العلوم الشرعية فطلبها أيضا من فروض الكفايات وهى محمودة كلها ، ولكن نظراً للتلبيس بينها وبين بعض علوم أخرى والتي يظن أنها شرعية فقد استتبع ذلك تقسيمها إلى علوم محمودة وعلوم مذمومة .

أما العلوم المحمودة فأربعة : أصول ، فروع ، مقدمات ، متممات .

أولاً : الأصول :

وهي أربعة كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ ، وإجماع الأئمة ، وآثار الصحابة .

أما الإجماع فيعد أصلاً لأنه يدل على السنة فهو أصل في الدرجة الثالثة ، وآثار الصحابة أصل أيضاً ، لأن الأثر يدل على السنة فالصحابة قد شاهدوا الوحي والتنزيل وقارنوا الأحوال بأقرانها واستدلوا منها على ما غاب عن غيرهم أعيانه . ولهذا رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم بشروط مخصوصة .

ثانياً : الفروع :

وهي العلوم المستنبطة من الأصول ليس بموجب لفظها ولكن بمعان تدركها العقول ، حتى فهم من اللفظ غيره كما في حديث الرسول ﷺ « لا يقض القاضي وهو غضبان » ، ففهم منه أنه لا يقضي إذا كان حاقناً أو جائعاً أو متألماً بمرض وهذ النمط من الاستنباط يؤدي إلى جانبين : أحدهما للدنيا والآخر لمصالح الآخرة . فإن كان للدنيا فذلك كتب الفقه ويقوم بها الفقهاء وهم علماء الدنيا ، وإن كان للآخرة فهو علم أصول القلب وأخلاقه المحموده أو المذمومة .

ثالثاً : المقدمات :

وهو العلوم التي تعد كالآلات مثل علم اللغة والنحو فهو آلة لعلم كتاب الله وسنة النبي ﷺ ، مع أن علم اللغة والنحو ليسا من العلوم الشرعية ولكن لابد من دراستهما كفرض كفاية ، لأن الشريعة لا تظهر إلا بلغة .

رابعاً : المتممات:

كتعلم القراءات ومخارج الحروف والتفسير ومعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص ، والنص والظاهر ، وكلها متصلة بالقرآن الكريم . ومن المتممات كذلك أصول الفقه والسنة . ومن المتممات في الآثار العلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم . وأنساب الصحابة وصفاتهم والعلم بالعدالة في الرواة والعلم بأحوالهم لتمييز الضعيف عن القوي والعلم بأعمارهم ليميز المرسل عن المسند .

آداب المتعلم والمعلم :

تحدث كثير من المفكرين التربويين المسلمين عن آداب المتعلم والمعلم ، ولكن الغزالي انفرد ببيان آداب المتعلم بصورة أكثر تفصيلا ، وأدق فكراً .

وعن المتعلم وضع الغزالي عشر وظائف نظمها على النمط التالي :

الوظيفة الأولى:

أن يقدم المتعلم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات ، لأن العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى . وكما لا تصح الصلاة بغير تطهير الظاهر من الأحداث والأخباث كذلك القلب لا تصح عمارته بالعلم بغير تطهير الباطن عن خبائث الأخلاق ومذموم الأوصاف . والطهارة والنجاسة ليستا مقصورتين على الظواهر بالحس لأن المشرك قد يكون نظيف الثوب وطاهر البدن ولكنه نجس باعتبار الباطن حيث أنه ملطخ بالخبث .

ومن هنا فتخلية القلب عن الخبائث المهلكة أمر واجب لأنها خبيثة في الحال ومهلكات في المآل ، وحيث أن الملائكة رسل العلم إلى القلب فمن هنا لا يمكن أن تدخل الملائكة قلباً مشحوناً بالخبائث ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء** ﴾ .

والغزالي ينظر إلى الذين يحصلون العلوم مع سوء أخلاقهم ينظر إليهم على أنهم لم يحصلوا العلم النافع . قال ابن مسعود رضي الله عنه « ليس العلم

بكثرة الرواية ، إنما العلم نور يقذف في القلب وقال بعضهم إنما العلم الخشية قال تعالى ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ .

الوظيفة الثانية:

أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، وأن يبعد عن الأهل والوطن وأن يغترب من أجل طلب العلم « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » لأن الفكر إذا تشتت فلا يمكنه أن يدرك الحقائق . ولذلك قيل إن العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فإذا أعطيته كلك فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر .

الوظيفة الثالثة :

أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب الحاذق . وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته .

ولا شك أن كل ما جاء من آداب هذه الوظيفة تستحسنه التربية الحديثة وتقره بل هو لا يتعارض مع الذوق السليم والنفوس الصحيحة .

الوظيفة الرابعة :

أن يجتنب المبتديء في طلب العلم من الاستماع إلى اختلاف الناس ، سواء أكان العلم الذي يشرع في تعلمه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة ، وذلك لأن هذا الاختلاف يدهش عقله ويفتر رأيه . ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع . ولكن على المبتديء في طلب العلم أن يتقن أولاً الطريقة التي عليها أستاذه وهي الطريقة الحميدة المرضية عنده ، وبعدها يمكنه أن يصغى إلى المذاهب والشبه الأخرى ، وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأي واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فإن إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم .

تعليق: ظني أن هذه الوظيفة تتناسب مع طلاب العلم المتقدمين في مراحل طلب العلم . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية يتناسب مع علوم يكثر فيها الجدال مثل علم

الكلام والفلسفة .

الوظيفة الخامسة :

أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ، وإن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية . فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض .

الوظيفة السادسة :

أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة ، بل يراعي الترتيب ويبتديء بالأهم ، فإن العصر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه الشمة ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعني قسمي المعاملة والمكاشفة ، فغاية المعاملة المكاشفة . وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى . وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم .

الوظيفة السابعة:

أن لا يبتديء المتعلم في فن من فنون العلم حتى يستوفي العلم الذي قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً ، وبعضها طريق إلى بعض . والموفق من راعى الترتيب والتدرج ، قال تعالى ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته**﴾أي لا يجاوزون علماً حتى يتقنوه نظراً أو عملاً شريطة أن يكون المقصد الترقي إلى ما هو فوقه من العلوم .

الوظيفة الثامنة :

أن يعرف المتعلم السبب الذي به يدرك أشرف العلوم وأن ذلك يراد به شيئان : أحدهما شرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل وقوته . وذلك كتعلم الدين والطب فثمرة الأولى الحياة الأبدية . وثمرة الثاني الحياة الفانية فيكون الدين أشرف من الطب . ومثل الحساب والنجوم ، فالحساب أشرف لوثاقة أدلته .

وإذا نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف وإن كان قائماً على التخمين نظراً لشرف ثمرته . والحساب أشرف باعتبار وثاقة أدلته . وبهذا يتبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم .

الوظيفة التاسعة :

أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل ليحصل له القرب من الله سبحانه والتربية إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين . وعليه ألا يقصد الرياسة والمال والجاه ومجاراة السفهاء ومباهاة الأقران ، وإذا كان هذا مقصده طلب لا محال علم الآخرة ومع ذلك لا يحقر من العلوم الأخرى مثل النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغيرهما مما ذكر في المقدمات والمتممات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية .

الوظيفة العاشرة :

أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد. والمهم على غيره — ومعنى المهم ما يهمك — ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً والبدن مركباً والأعمال سعياً إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله ففيه النعيم كله وإن كان لا يعرف هذا العلم قدره إلا الأقلون .

وظائف المرشد المعلم

إعلم أن الإنسان في علمه أربعة أحوال كما له في اقتناء الأموال . إذا لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسباً وحال ادخار فيكون غنياً عن السؤال . وحال إنفاق على نفسه فيكون منفقاً ، وحال بذل لغيره فيكون به سخياً متفضلاً وهو أشرف أحواله . فكذلك يقتنى (يقصد العلم) كما يقتني المال فله حالة طلب واكتساب وحال تحصيل يغني عن السؤال وحال استبصار وهو التفكر في المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال .

فمن علم وعمل وعلم فهو الذي يدعي عظيماً في ملكوت السموات فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب .

وهناك ثمانية وظائف رآها الغزالي للمعلم :

الوظيفة الأولى :

أن يكون المعلم شفوقاً بالمتعلمين قال ﷺ : (إنما أنا لكم مثل الوالد لولده) بمعنى أن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة . ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، لأن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية . أما المعلم فهو المفيد للحياة الأخروية الدائمة أعني معلم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا . فأما المتعلم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه . وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا .

الوظيفة الثانية :

أن يقتدي بصاحب الشرع ﷺ فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد جزاء ولا شكورا بل يعلم لوجه الله تعالى للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذا هذبوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقلده منة وثوابك في التعلم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ، ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من عند الله تعالى كما قال عز وجل ﴿ **ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله** ﴾ .

الوظيفة الثالثة :

أن يوالي المعلم النصح للمتعلم ، ويمنعه من التصدي لرتبة قبل

استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ثم ينبهه على أن الغرض من العلم درجة الله تعالى والقرب منه دون الرياسة والمباهاة والمنافسة . على أن علوم الجدل في الكلام وعلم الخلاف في الفقه والفتاوي في الخصومات ليست من علوم الآخرة فيمنع طالب العلم من تعلمه . وحتى علوم التفسير والحديث لو تعلمها الطالب لقصد الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه يورثه طمعاً في الوعظ والاستتباع .

وقد رؤي سفيان الثوري رحمه الله حزيناً فقيل له مالك ؟ فقال : « صرنا متجراً لأبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضياً أو عاملاً أو قهرمانا » .

الوظيفة الرابعة :

أن لا يعنف المعلم طالب العلم ، ولا يزجره بطريقة صريحة أو يوبخه بأسلوب ممقوت ، بل عليه أن يستخدم أسلوب التعريض ما أمكنه ، لأن التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار .

ولنا في قصة آدم وحواء وما نهيا عنه عبرة ، فالقصة لم تذكر للسمر ولكنها ذكرت للعبرة . .

الوظيفة الخامسة :

إن المتكفل ببعض العلوم ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي لا يدرسها . كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك نقل محض وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه .

تعليق :

إن الوظيفتين الرابعة والخامسة تتوافقان مع ما تنادي به التربية الحديثة من الرفق بالطلاب وعدم زجرهم أمام زملائهم لأن النصيحة في الملأ فضيحة وقد سبقهم الإمام الغزالي في تلك النظرة .

أما ما دعا إليه في الوظيفة الخامسة فهو قمة في دماثة الأخلاق ونحن بلا شك نحتاج أن نتمثل هذا في تربيتنا في العصر الحديث لأن صورة ممقوتة قد انتشرت بيننا وبتنا وأصبحنا وقد انتشرت بين معلمينا روح الحقد والمباهاة ، والفخر والعجب ، والتقليل من شأن علوم أخرى لا يقومون بتعليمها .

ولعلنا في أمس الحاجة أن نترسم قول الغزالي في تلك الظروف الراهنة التي تمر بها مدارسنا ، فما أحوجنا أن نتمثل ذلك قولاً وعملاً . والقرآن الكريم يحثنا على ذلك في كثير من آياته : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاثم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ الحجرات ـــ آية (١١) .

والأثر الذي يتركه معلم يحقر أمام تلاميذه من شأن مادة أخرى يدرسها زميله لا يقتصر الأمر على كراهية التلميذ لتلك المادة بل الأمر أخطر من ذلك فالطالب الذي يقتدي بأستاذه تتركز في ذهنه تلك الأحقاد ، ويتعود طبعه على تجريح الآخرين والطعن فيهم وذلك هو الوبال الكبير .

ولعل التربية الحديثة تنادي بتلاحم المواد العلمية ، حتى يلتحم بالتالي المدرسون والمعلمون ، تلتحم المواد العلمية فيتصل معلم اللغة العربية بمعلم العلوم ويمكنه أن يدرس موضوعاً للقراءة من خلال نظرية في مادة العلوم ، وأيضاً يمكن لمدرس التاريخ أن يقدم مادته في إطار علم الاجتماع وهكذا يمكن إذابة الأنانية والفرقة بين المدرسين وبين المواد لتبقى بالتالي شخصية متكاملة في جميع الاتجاهات وهكذا .

الوظيفة السادسة :

أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله اقتداءاً في ذلك بسيد البشر محمد ﷺ حيث قال : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم » . فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يشتغل بفهمها وقال ﷺ : « ما أحداً يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم » . وقال

رضي الله عنه وأشار إلى صدره « إن هاهنا لعلوم جمة لو وجدت لها حملة » .

الوظيفة السابعة:

إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق . فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه وتعالى في كمال عقله .

تعليق :

لعمري أن هذه الوظيفة ليست مفيدة في مجال التعليم فقط بل هي أيضاً تفيد في الدعوة إلى الله سواء في الوعظ العام أم بالمساجد . وحقيقة تذكر أن هذه لم تقتصر على المعلمين في معاهد العلم بل وظيفة عامة يمكن أن يستفيد منها كل داعية إلى الواحد القهار . ولعل الإشارة إلى ترسيخ قيمة الأمانة عند العوام لأعظم أثر يمكن أن يتركه المعلم في عقول المتعلمين وما أحوجنا إلى مثل هذا الاتجاه .

الوظيفة الثامنة :

أن يكون المتعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار أكثر فإذا خالف العمل منع الرشد . وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك فسخر الناس منه واتهموه وزاد حرصهم على مانهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به .. قال تعالى ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾ . ولذلك وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير يقتدون به . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها . ولذلك قال علي رضي الله عنه « قصم ظهري رجلان ، عالم مهتك وجاهل متنسك ، فالجاهل يغري الناس بتنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه » .

الأخلاق عند الغزالي :

درس الغزالي فلسفة الأخلاق وتهذيبها بنظرة كلية ، ليتعرف على المنهاج الذي

يمكن استخدامه لبيان فضيلة حسن الخلق وحقيقته ، ثم قبول الأخلاق للتغير بالرياضة ، وأيضا السبب الذي به ينال حسن الخلق ، وكذلك الطريقة التي يعرف بها تفصيل الطرق إلى تهذيب الأخلاق ورياضة التقوى .

كما تعرض الغزالي للعلامات التي يعرف بها مرض القلب ، ثم بيان الطرق التي بها يعرف الإنسان عيوب نفسه ، وكذلك تعرض للشواهد النقلية . ثم رأى أن طريق المعالجة للقلوب بترك الشهوات لا غير ، ثم تعرض لعلامات حسن الخلق ، وكذلك بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول النشوء وأخيرا تعرض لبيان الشروط الخاصة بالإرادة ومقدمات المجاهدة .

فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق :

قال الله تعالى ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ ، وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها « كان خلقه القرآن » ، وأجاب رسول الله ﷺ رجلا سأله عن حسن الخلق بتلاوة قوله تعالى ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾وقال ﷺ « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وجاء رجل إلى رسول الله ﷺمن بين يديه فقال يارسول الله ماالدين ؟ فقال « حسن الخلق » فأتاه من قبل يمينه فقال يارسول الله ماالدين ؟ فقال « حسن الخلق » ثم أتاه من ورائه فقال يارسول الله ماالدين ؟ فقال « حسن الخلق » فالتفت إليه وقال أما تفقه ، هو ألا تغضب » أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « كرم المؤمن دينه وحسبه حسن خلقه ، ومروءته عقله » أخرجه ابن حيان والحاكم .

وكان من دعائه ﷺ في افتتاح الصلاة : « اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت » أخرجه مسلم .

كما استشهد الغزالي من الآثار . « قال ابن لقمان الحكيم لأبيه : « ياأبت أي الخصال من الإنسان خير ؟ قال : الدين ، قال فإذا كانت اثنتين ؟ قال الدين والمال قال فإذا كانت ثلاثا ؟ قال الدين والمال والحياء ، قال فإذا كان أربعا ؟ قال : الدين

والمال والحياء وحسن الخلق ، قال : فإذا كانت خمسا ؟ قال الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء ، قال فإذا كانت ستا ؟ قال : يابني إذا اجتمعت فيه الخمس خصال فهو نقي تقي ولله ولي ومن الشيطان بريء » .

حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق :

« الخلق والخلق » عبارتان مستعملتان معا ، يقال : فلان حسن الخلق والخلق ــ أي حسن الظاهر والباطن ــ فيراد بالخلق الصورة الظاهرة ، ويراد بالخلق الصورة الباطنة . وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة . ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة . فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدرا من الجسد المدرك بالبصر . ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى ﴿ **إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾ فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين . والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد ، فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقا سيئا . وإنما قلنا أنها هيئة راسخة ، لأن من يصدر منه بذل المال على الفور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك فى نفسه ثبوتا ورسوخا . وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير رويه لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد ورويه لا يقال خلقه السخاء والحلم .

« فههنا أربعة أمور ، أحدهما : فعل الجميل والقبيح . والثاني : القدرة عليهما ، والثالث : المعرفة بهما . والرابع : هيئة النفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين إما لحسن وإما لقبح .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ، ولا يبذل ، إما لفقد المال وإما لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث وإما لرياء . وليس هو عبارة عن القوة ، لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الاثنين واحد . وكل إنسان خلق بالفطرة قادرا على الإعطاء والإمساك ، وذلك لا يوجب

خلق البخل ولا خلق السخاء .

وليس هو عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد . بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، وهو الهيئة التي بها تستعد بها النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل .

فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة . وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر . فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتسم حسن الخلق . فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث .

أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة . والحكمة رأس الأخلاق الحسنة . وهي التي قال الله فيها ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا** ﴾

وأما قوة الغضب فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة ، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة ، أعني إشارة العقل والشرع .

وأما قوة العقل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع ، فمن استوت فيه هذه الخصال واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقا . ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون بعض وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة ، وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة .

« والمحمود هو الموسط وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان مذمومتان . والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور » .

وأما الحكمة فيسمى أفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثا ويسمى تفريطها بلها ، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة.

فإذن أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل .

ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية .

ونعني بالعدل للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة ونضبطها في الاسترسال والانقباض على حساب مقتضاها .

ونعني بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في أقدامها وأحجامها .

ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع .

« .... فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة : وهي الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل . والباقي فروعها .

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله ﷺ والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه . فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله ﷺ وكل من جمع هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال . ومن انفك عن هذه الأفعال كلها واتصف بأضدادها واستحق يخرج من بين البلاد والعباد فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد ، فينبغي أن يبعد ، كما أن الأول قريب من الملك المقرب فينبغي أن يقتدي به ويتقرب إليه فإن رسول الله ﷺ لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق كما قال » .

ثانيا : الفكر التربوي عند ابن خلدون :

أولا : مقوماته الشخصية :

أ ــ مولده ونشأته :

ولد ابن خلدون في تونس عام ٧٣٢ هـ الموافق ١٣٣٢ م . وتوفي بالقاهرة عام ٨٠٨ هـ الموافق ١٤٠٦ م وقد ناهز عمره ستا وسبعين عاما ، زاخرة كلها بالنشاط الخارق والحيوية المتدفقة . شب ابن خلدون وترعرع في تونس . في شارع ترعة الباي ، وتشغلها منذ زمن قريب مدرسة الإدارة العليا .

وقد وجد بباب المدرسة لوحة رخامية ، تخليدا لمولد هذا المفكر الكبير . أما قلعة بني سلامة ، التي شهدت كتابة المقدمة ، فتقع على بعد خمسة كيلو مترات من مدينة « فرندا » التابعة لمقاطعة وهران في الجزائر .

هذا ولقد عرف ابن خلدون بنفسه حين يقول في بداية المقدمة :

« يقول العبد الفقير إلى الله تعالى ، الغني بلطفه ، عبد الرحمن محمد بن خلدون الحضرمي » .

أما معاصروه فقد زادوه سلسلة من الأسماء والنعوت والألقاب وجدت مسطرة على غلاف النسخة المهداة إلى مكتبة جامع القرويين بفاس ووردت فيها الألقاب والنعوت التالية :

« قاضي القضاة ، ولي الدين ، أبو زيد ، عبد الرحمن ، ابن شيخ الإمام أبي عبد الله محمد ، ابن خلدون ، الحضرمي ، المالكي ... » .

ولعل في إشارته إلى الحضرمي مما يشير إلى اتصال نسبه بقبائل حضر موت .

أما أهل مصر ممن عاصره ، فقد نعتوه بالمغربي أو التونسي إشارة إلى انحداره من بلاد المغرب .

كما أن كثيرا من الكتابات والرسائل الخطية المعاصرة له ، كانت تعرف اسم ابن خلدون بنعوت أخرى ، منها الوزير ، الرئيس ، الحاجب ، الصدر الكبير ،

الفقيه الجليل ، علامة الأمة ، إمام الأئمة ....إلخ .

زخرت حياة ابن خلدون ونشأته الوثابة المتطلعة إلى المناصب والرئاسة ، زخرت بالكثير من الوظائف العديدة والمتعددة ، والتي كلفت ابن خلدون الكثير من الحيل ، وسبك المؤامرات ، والتلون وفق هوى السلاطين الذين عايشهم ، ولم يمانع ابن خلدون أن يتقلب حسب ماتميل الرياح ، فقد يكون مع السلطان اليوم وضده غدا ، طالما أن ذلك يحقق له هدفا ، أو يأتي له بمنصب أو جاه .

والواقع أن ابن خلدون أجاد أداء هذا الدور بحنكة خارقة اكتسبها من معايشته لمجالس والده ، وأيضا من تاريخ أسرته الغابر في السلطنة والحكم .

دخل ابن خلدون غمار الحياة وهو لم يبلغ العشرين من السن مارس خلالها العديد من الوظائف مثل : كتابة السر ، خطه المظالم ، الحجابة ، الوزارة ، كما عمل سفيرا ومدرسا وقاضيا وخطيبا .

غير أن تلك المناصب لم تكن مضحوبة بلين الحياة ، وطيب المقام بل واكبها الكثير من العنت والقلاقل ، والعديد من صفوف المنافسات والمخاصمات .

من هنا لم ينعم ابن خلدون بالحياة الهادئة ، اللهم عدا السنين الأربع التي قضاها في قلعة ابن سلامة ١٣٧٥ ـــ ١٣٧٨ م ، حين انسلخ من الحياة السياسية واعتزلها ، واعتكف عن مصائبها ومع قلة هذه السنوات ، إلا أنها زخرت بأعز وأثمن وأخصب ماتدفقت عنه قريحة ابن خلدون من فكر ، ذلك أنها شهدت كتابة مقدمته المشهورة التي ظلت تخليدا لنشاطه الفكري وإنتاجه العلمي ، وبقيت على مر الزمن لتضع ابن خلدون ومن وسط كبار المفكرين بل وعلى قمتهم .

ب ـــ مؤلفاته :

يذكر لسان الدين بن الخطيب الصديق الحميم لابن خلدون ، مجموعة من المؤلفات منسوبة لابن خلدون وهي : رسالة في المنطق ، رسالة في الحساب . تلخيصا لبعض ماكتبه ابن رشد في قصيدة البردة . تلخيصا لكتاب فخر الرازي .

ولم يذكر ابن خلدون شيئا عن هذه المؤلفات ، ولعل السبب هو أنها ربما

كانت رسائل كتبها ابن خلدون كإعداد للدروس التي كان يلقيها ، فلم ترق إلى أن يدخلها ابن خلدون في عداد المؤلفات الجديرة بالاعتبار .

أما المؤلف الأوحد لابن خلدون فهو :

« كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » .

وهذا الكتاب الموسوعة « كتاب العبر » يشتمل حسب تعبير ابن خلدون على مقدمة وثلاثة كتب :

أما المقدمة فتتحدث عن فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه وذكر أغلاط المؤرخين .

ويشتمل الكتاب الأول على التحدث عن العمران ، والملك والسلطات والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما وراء ذلك من العلل والأسباب .

أما الكتاب الثاني فيشتمل على ذكر أخبار العرب وأجيالهم منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد ، مع ذكر من عاصرهم من الأمم مثل الفرس والسريانيين وبني إسرائيل والقبط واليونان والرومان والترك والأفرنجة .

ويتضمن الكتاب الثالث : أخبار البربر وذكر أوليتهم وأجيالهم . وما كان بديار المغرب خاصة من الملك والدول .

وهذا المؤلف الضخم « كتاب العبر » يقع في سبع مجلدات :

يضم المجلد الأول المقدمة وهو مايسمى الآن بمقدمة ابن خلدون وهذه المقدمة تعتبر الكتاب الأول من المجلد الضخم كتاب العبر .

أما المجلد الثاني والثالث والرابع والخامس فيؤلف ما أسماه ابن خلدون باسم « الكتاب الثاني » ويتصل أساسا بتاريخ العرب والإسلام والمشرق .

أما المجلد السادس والسابع فيؤلفان ما أسماه ابن خلدون باسم « الكتاب الثالث » الذي أودعه أخبار البربر وتاريخ المغرب ، هذا وينتهي المجلد السابع بالتعريف بابن خلدون صاحب هذه الموسوعة .

جـ ـــ المناهج والعلوم وأقسامها وأهميتها :

وتنقسم العلوم التي يحصلها البشر إلى صنفين :

أ ـــ علوم نقلية .

ب ـــ علوم عقلية .

أ ـــ أما العلوم النقلية ، فتستند في خبرها إلى الواضع الشرعي ، فلا مجال فيها للفعل ، اللهم إلا في إلحاق الفروع بالأصول ، لأن الجزئيات الحادثة لا تندرج تحت النقل بمجرد الوضع لذلك فتحتاج إلى الإلحاق بعلوم النقل بطريق القياس .

ولما كان القياس من الخبر بثبوت الحكم في الأصل ، وهو نقلي فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه .

والعلوم الشرعية تشمل علوم الكتاب والسنة ومتعلقاتهما من العلوم التي تهيؤها للإفادة . ويعني ابن خلدون بتلك العلوم (المتعلقات) علوم التفسير والقراءات والسنة وسندها ومعرفة أحوال الرواة وعدالتهم ، لمعرفة درجة الوثوق فيما أخبروا به عن صاحب الشارع ﷺ .

ويستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن الكريم .

ب ـــ علوم عقلية :

أما العلوم العقلية وهو الصنف الثاني فتعلمها طبيعي في الإنسان يهتدي إليه بفكره . وتشمل العلوم الحكمية الفلسفية ، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها ووجوه تعليمها حتى يصل بنظره على الصواب والخطأ فيها .

ولقد تناول ابن خلدون في الباب السادس من المقدمة مناقشة مطولة للعلوم النقلية والعقلية . أفاض فيها الحديث عن تلك العلوم والتي تضمنت :

١ ـــ علوم القرآن من التفسير والقراءات .

٢ ـــ علوم الحديث .

٣ ــ علم الفقه ومايتعلق به من الفرائض .
٤ ــ علم الفرائض .
٥ ــ أصول الفقه ومايتعلق به من الجدل والخلافيات .
٦ ــ علم الكلام .
٧ ــ علم التصوف .
٨ ــ علم تعبير الرؤيا .
٩ ــ العلوم العقلية وأصنافها.
١٠ ــ العلوم العددية .
١١ ــ العلوم الهندسية.
١٢ ــ علم الهيئة .
١٣ ــ علم المنطق .
١٤ ــ الطبيعات .
١٥ ــ علم الطب .
١٦ ــ الفلاحة .
١٧ ــ علم الإلهيات .
١٨ ــ علوم السحر والطلسمات .
١٩ ــ علم الكيمياء .

كما تحدث بشيء من التفصيل عن إبطال الفلسفة وفساد منتحلها ، وكذلك إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها . كما تحدث عن إنكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ عنها .

وأفاض في الحديث عن المتشابه من الكتاب والسنة وماحدث لأجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقاد .

ويبدو أن ابن خلدون استطاع من خلال تجاربه العملية وأفكاره النظرية أن يضع أيدينا على الكثير من الأخطار التربوية سواء مايتعلق بالعلوم وأقسامها ، أو بما يجب أن تتسم به المناهج التي تقدم للمتعلمين .

ولقد أفاض في ذلك ابن خلدون ، وبين أن كثرة التآليف وتعددها في فن

واحد ، تعيق المتعلم عن التحصيل وتحد من قدرته على الاستيعاب لجوانب العلم المختلفة .

يقول ابن خلدون : « اعلم أن مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم ، وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك ، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل . فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها ، فيقع القصور ، ولابد ، دون رتبة التحصيل » . وقد استشهد ابن خلدون على ذلك بكثير من مؤلفات فقه المالكيـة ومـا صاحبها من كثرة الشروح وتمايز الطرق ، بين قرطبة وبغداد ومصر ، وضرورة الاحاطة بذلك كله ضرب من المحال .

على أن هذه الشروح على تعددها فهي « كلها متكررة والمعنى واحدا والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز مابينها ، والعمر يقتضي في واحد منها . ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير ، وكان التعليم سهلا ومأخذه قريبا . ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه . فصارت كالطبيعة لا يمكن نقلها ولا تحويلها .

ويعزي ابن خلدون رأيه في هذا ، بأن الطاقة البشرية ، والقدرة الفكرية للإنسان من النادر أن تحيط بالمذاهب المتعددة ، والطرق والتآليف المختلفة في فن واحد ، اللهم إلا إذا كان ذلك بفيض من الله الذي يؤتيه من يشاء وهو نادر في الوجود .

« وإلا فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلا الذي هو آلـة من الآلات ووسيلـة ، فكيـف يكـون بالمقصود الـذي هو الثمرة ، ولكن الله يهدي من يشاء » .

*** كما تنقسم العلوم عنده إلى :**

أ ــ علوم مقصودة بالذات ، وتضم الشرعيات من علوم التفسير والحديث والفقه وعلم الكلام ، كما تضم الطبيعيات من العلوم الطبيعية والإلهيات من الفلسفة .

ب ــ علوم هي آلية ووسيلة للعلوم المقصودة ومنها العلوم العربية والحساب

وغيرهما ، وهما آلات للعلوم الشرعية . ومنها المنطق الذي هو آلة للفلسفة ، وقد يكون أيضاً آلة لعلم الكلام وأصول الفقه على طريقة المتأخرين . والعلوم المقصودة بالذات ، يتوسع فيها ، ويتفرع في مسائلها ، وتوضع أدلتها ، ومناظراتها ، لأن هذا يزيد المتعلم تمكنا في ملكته وإيضاحا لمعانيها المقصودة .

وأما العلوم التي هي آلة لغيرها ، فلا يتوسع فيها ، ولا يتفرع في مسائلها لأن هدفها الأساسي هو أنها آلة لغيرها من العلوم المقصودة ، فإذا خرجت عن ذلك فقد خرجت عن المقصود « وصار الاشتغال بها لغوا مع مافيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها . وربما يكون ذلك عائقا عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها ، مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعا وشغلا بما لا يعني » .

ويمثل ابن خلدون لذلك بما فعله المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه ، حيث أنهم توسعوا في تفريعاتها واستدلالاتها بما ترتب عليه مايأتي :

أ ــ إخراج هذه العلوم من دائرة علوم الآلات وتصييرها من علوم المقاصد .

ب ــ التوسع في علوم الآلات ، خصوصا في مناظرات لا حاجة بها في علوم المقاصد ، يجعل هذا التوسع نوعا من اللغو .

جـ ــ والتوسع بتلك الصورة أيضا قد يضر بالمتعلمين ، لأن اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر من علوم الوسائل ، وهذا ينعكس على كمية التحصيل من علوم المقاصد مع أنها المقصد الأساسي في عملية التعليم .

يقول ابن خلدون : « .... فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية ألا يستبحروا في شأنها ، وينبهوا المتعلم على الغرض منها ، ولا يبقوا به عنده . فمن نزعت به همته بعد ذلك إلى شيء من التوكل فليرق له ماشاء من المراقي صعبا أو سهلا ، وكل ميسر لما خلق له » .

ويبدو أن ابن خلدون يجعل من العلوم المقصودة مطلبا أساسيا لكل متعلم ، وإلا فلماذا يمنع التوسع في علوم الآلات ، ويصر على الإحاطة بالعلوم المقصودة . وإذا سلمنا أن هذه العلوم المقصودة تحصيلها واجب لكل متعلم ، فهل يعني هذا بالضرورة عدم التوسع في علوم اللغة وغيرها والتي اعتبرها ابن خلدون من علوم

الآلات ؟ .

يبدو أن ابن خلدون غفل عن أمور هي أيضا مرتبطة باللغة ومع ذلك فتعلمها مطلب أساسي في نظرنا . وذلك مثل علوم الأدب والأشعار . وعلى كل حال فالمسألة نسبية ، وتتوقف على مدى الاستفادة من العلم الذي يحصل المتعلم ، وأيضا مدى إفادة غيره منه ، وأخيرا احتساب ذلك كله لله تعالى بصرف النظر عن كونه من العلوم المقصودة لذاتها أو من علوم الآلات .

د ـــ طريقة التدريس :

يتعرض ابن خلدون في هذا المقام لقضية جوهرية ، تتصل أساسا بطريقة تعليم القرآن الكريم ، ومتى يجب البداية في تعليمه ، وموقف العلوم الأخرى مثل اللغة العربية والشعر العربي وغيرهما ، بجانب القرآن الكريم . وهل يبدأ بالتعليم لتلك العلوم مصاحبا للقرآن أو قبله أو لاحقا به .

أقول هذه قضية لأنها تمس العصر الذي نعيش فيه ، فلقد درج بعض المفكرين على ضرورة البدء بالقرآن الكريم تعليما له بالدرجة الأولى ومصاحبة ذلك بعلوم البدايات في اللغة العربية . وجامعة الأزهر ربما تمثل هذا الاتجاه حيث يأتي ـــ أو يجب أن يأتي ـــ الطالب إليها وهو حافظ للقرآن الكريم . ولذلك فهو مؤهل تلقائيا لعلوم القرآن الكريم من تفسير وحديث وأصول الفقه والنحو والصرف والبلاغة والأدب والعقيدة والتوحيد ... وغيرها .

والمميزات المصاحبة لذلك ، أن المتعلم لا تعوزه الأدلة والبراهين والشواهد على كل حكم من الأحكام التي تنتج من هذه العلوم ، لأن القرآن والسنة يوجد بهما المعين الكامل والأدلة الدافعة لكثير من مسائل تلك العلوم ، لدرجة أن بعض التفاسير تحمل معظم البيان والشرح على اللغة العربية من إعراب وبلاغة ، وتربط بينها وبين الأحكام المتعلقة بالتفسير .

ولقد تخرج بهذا النمط وتلك الطريقة فحول العلماء والأدباء والمفكرين وابتكروا الكثير في فنون متعددة ، نظرا لتوقد قريحتهم ، وتكوين ملكاتهم ببركة القرآن الكريم الذي حفظوه في صدورهم وهم في سن الصبى الأولى والتي تعد بالتأكيد أهم ركيزة أولية تتكون فيها شخصية الكائن البشري ، وتدعم فيها الفطرة الدينية التي فطر الله

الناس عليها . « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها » ، وقال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

هـ ـ المعلم والمتعلم :

« قدم ابن خلدون آراء في هذا المجال سبق بها الكثير من الفكر التربوي الحديث ووضع أسسا للمعلم يجب أن يسلكها أثناء ممارسته لعملية التعليم .

أولا : على المعلم أن لا يزيد متعلمه على فهم الكتاب الذي اعتزم التعليم منه ، ويقدم له ما يتناسب مع طاقته وقدرته . وأيضا عليه ألا يخلط مسائل الكتاب بغيرها ، حتى يستوفي الكتاب من أوله إلى آخره ، ويحقق أغراضه ، ويستولى منه على ملكة بها ينفذ إلى غيره . « لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول مابقى ، وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى مافوق ، حتى يستولي على غايات العلم ، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم ، وإدراكه الكلال وانطمس فكره ، وبئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم » .

ثانيا : على المعلم ألا يطيل الفترة الزمنية بين درس الفن الواحد ، لأن ذلك ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها . « وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكر مجانية للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطها وأقرب صبغة . لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره ، وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه » .

ثالثا : على المعلم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا ، فإنه جينئذ يندر أن يحصل واحدا منهما ، لأن ذلك فيه تقسيم للبال وانصراف للذهن ، عن تفهم كلاهما بالأسلوب الأمثل « فيستغلقان معا ويستصعبان ، ويعود منهما بالخيبة ، وإذا تفرغ الكفر لتعليم ، هو بسبيله مقتصرا عليه ، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله .

ويبدو أن ابن خلدون يعنى بعدم الخلط لعلمان في وقت واحد ، يبدو أنه يعنى المرحلة المتقدمة من التعليم ، حيث يتعمق المتعلم في فن من

الفنون ، ويغوص في أعماقه ، ويتعرف على معضلات ذلك الفن ليحذق فيه ويبدع ويصير ملما بجزئياته ما دق منها وماعلا . وإلا فكيف يستقيم هذا مع مبدأ التعليم العام ، والإلمام الشامل في شكل مبسط بجميع العلوم التي لا تستقيم الحياة بدونها ، ولابد من تحصيلها لجميع المتعلمين ، مع مبتدأ حياتهم . وأما التعمق في فن واحد فيأتي في مرحلة تالية . يصفو فيها ذهن المتعلم ويقصر عليها جهده .

وبهذا يمكن التوفيق بين ما ارتآه ابن خلدون من عدم الخلط لعلمين في وقت واحد ، وما نادى به كذلك من ضرورة تحصيل المتعلم — أي متعلم — لقاعدة عريضة تضم كثيرا من العلوم والفنون .

رابعا : يرى ابن خلدون أن القسوة بالمتعلم مضرة له ، ومحبطة لهمته ومروءته ، ومدعاة لكذبه وكسله وتخاذله ، وخبثه وهي صفات ذميمة تتنافى مع الهدف من تعليمه ، بل وقد تصبح تلك الصفات عادة له ، وخلقا يتمرس عليه ، فتفسد المعاني الإنسانية التي تشمل الحمية والدفاع عن النفس ، بل وقد يعجز عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل .

ولا يكتفي ابن خلدون بتأثير القسوة في التربية على شخصية المتعلم بل الأمر يتعدى ذلك ليصير صفة لأمة بأسرها ، طالما قاست القهر وعانت العسف والظلم والاستبداد ، وذلك مثل الأمة اليهودية حيث أنهم يوصفون في كل عصر بالتخابث والكيد ، وتسبب ذلك القسوة التي عاشوها في غابر الأزمان .

يقول ابن خلدون : « فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده ألا يستبد عليهم في التأديب . وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئا . ومن كلام عمر رضي الله عنه : « من لم يؤدبه الشرع أدبه الله » حرصا على صون النفوس من مذلة التأديب ، وعلما بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له ، فإنه أعلم بمصلحته .

ومن أحسن مذاهب التعليم ماتقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين فقال : « يا أحمد إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه الفن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالضرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

خامسا : يرى ابن خلدون أن المتعلم يحصل العلم وماينتحله من المذاهب والفضائل والأخلاق عن طريقين :

أ ــ أسلوب العلم والتعليم والإلقاء .

ب ــ أسلوب المحاكاة والتلقين المباشر .

بيد أن حصول الملكات عن طريق المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا ، لأن تعدد الاصطلاحات واختلاف المذاهب ، لا يفيد في تمييز مصطلحاتها إلا الالتقاء بأهل العلم أنفسهم « فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ، فيجرد العلم عنها ، ويعلم أنها إنماء تعليم وطرق توصيل ، وتنهض قواه على الرسوخ والاستحكام في الملكات ، ويصحح معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم . وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

وربما يلتقي ابن خلدون الرأي مع الغزالي في أمر الاغتراب في طلب العلم .

المراجع :

(١) السيد سابق : العقائد الإسلامية ـــ القاهرة . مطبعة حسان ـــ جـ ٣١ ـــ ١٩٧٦ .

(٢) سعيد إسماعيل على : أصول التربية الإسلامية . القاهرة ـــ دار الثقافة للطباعة والنشر . ١٩٧٨ .

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن . الطبعة الثامنة . القاهـــرة . دار الشروق . ١٣٩٩ ـــ ١٩٧٩ .

(٤) صلاح الفوال : التصوير القرآنى للمجتمع ـــ القاهرة ـــ دار الفكر العربى . بدون .

(٥) عبد الفتاح عاشور : منهج القرآن فى تربية المجتمع ـــ القاهرة ـــ مكتبة الخنجى ١٣٩٩ ـــ ١٩٧٩ .

(٦) عبد الله عبد الدائم : التربية فى البلاد العربية ـــ ط ٤ ـــ بيروت ـــ دار العلم للملايين ١٩٨٣ .

(٧) على خليل مصطفى أبو العينين : أهداف التربية الإسلامية مصادر اشتقاقها ومعايير صياغتها للمجتمع الإسلامى المعاصر ط ١ ١٩٨٧ ـــ .مكتبة إبراهيم الحلبى ـــ المدينة المنورة .

(٨) عمر محمد الشيئبانى : فلسفة التربية الإسلامية ـــ ط ١ ـــ ليبيا ـــ ١٩٨٥ .

(٩) محمد الهادى عفيفى : فى أصول التربيـــة ـــ الأصول الفلسفيـــة للتربيـــة ـــ القاهرة ـــ الإنجيل المصرية ـــ ١٩٨٢ .

(١٠) محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ـــ جـ ١ ـــ دار الشروق ـــ ط ١ ـــ ١٩٨٢ .

(١١) محمد على المرصفى وليلى عطار : محاضرات فى التربية الإسلامية وأشهر المربين المسلمين ـــ ١٤٠٩ .

الفهرس

الفصل الأول : مدخل عام للتربية الإسلامية :

الفصل الثاني : الأصول الاعتقادية والتعبدية للتربية الإسلامية :

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ ص.ب : ٢٣٠
تلكس : DWFA UN-٢٤٠٠٤